مكتبة الشعراوى الإسلامية

الفضيلة والرذيلة

داعية الإسلام فضيلة الشيخ

محمد متولى الشعراوى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

نفحات فضـيلة الشيخ الإمام محمد مـتولى الشعراوى ، وفَيْض الله سبـحانه عليـه بعلمه ، فَـيْض متـواصل العطاء والمَدد على مـدى أجـيال وأجـيـال ، ينير الـطريق للطائعين السـالكين طريقَ الحق ، ويـأخـذ بأيسدى العـاصين لـعلَّهم يهتدون ويبـتعدون عن طريق الغواية والمعـصية والرذيلة ، ويستقيمون على أمر الله .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ .. (١١٢) ﴾ [هود]

فالأمـر بالاستقـامة هو أمر بدقَّـة الأداء المطلوب لله أمْراً ونَهْيـاً ، بحيث لا نميـل إلى جهة دون جـهة ، والاسـتقـامةُ تتطلب كاملَ اليقظة وعدم الغفلة .

يقول تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ

تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) ﴾ [فصلت]

أي : ساروا في الاتجاه المستقيم دون أنْ يلتفتوا يميناً ولا شمالاً ، ولم يربعوا في الطريق الواسع بل ساروا في وسطه دون مَيْل أو انحراف .

لذلك قال تعالى في الفاتحة :

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) ﴾ [الفاتحة]

فما هو الصراط ؟ هو الطريق الموصِّلة إلى الغاية ، وهو صراط مستقيم لأن الله سبحانه وتعالى وضَع لنا في منهجه الطريق المستقيم ، وهو أقصر الطُّرق إلى تحقيق الغاية ، فأقصر طريق بين نقطتين هو الطريق المستقيم .

ولذلك إذا كنتَ تقصد مكاناً فأقصر طريق تسلكه هو الطريق الذي لا اعوجاجَ فيه ، ولكنه مستقيم تماماً ، ولا تحسب أن البُعْد عن الطريق المستقيم يبدأ باعوجاج كبير ، بل باعوجاج صغير جداً ، ولكنه ينتهي إلى بُعْد كبير .

ويكفي أنْ تراقب قضبان السكة الحديد ، فعندما يبدأ القطار في اتخاذ طريق غير الذي كان يسلكه فهو لا ينحرف في أول الأمر إلا بضعة ملليمترات ، فأوّل التحويلة يكون ضيقاً جداً ، ثم يتسع الفرق ويزداد اتساعاً .

إذن : فأيُّ انحراف مهما كان بسيطاً يبعدك عن الطريق

المستقيم بُعداً كبيراً ، لذلك فإننا ندعو الله أنْ يهدينا الصراط المستقـيم ، الطريق الذى ليس فيه مخالفـة تُبْعدنا عن طريق الله المستقيم .

لذلك فإن الإنسـانَ المؤمن يطلب من الله سبحـانه وتعالى أن يهديه إلى أقـصر الطرق للوصول إلى الغـاية .. وما هى الغاية ؟ إنها الجنة والنعيم فى الآخرة ، ولذلك نقول : يارب اهدنا واعنّا علـى أنْ نسلكَ الطريق المسـتـقـيم ، وهو طريق المنهج لِيُـوَصّلنا إلى الجنة دون أن يكونَ فـيـه أىٌّ اعوجـاج يبعدنا عنها .

وأنت حين تقول : « إهدنا الصراط المستقيم » فأنت تطلب من الله تبـارك وتعــالى أنْ تكونَ مع النبـيـين والصـّديقين والشُّهداء والصالحين .

أى : أنك تطلب من الله جَلَّ جلاله أنْ يـجعلك تسلك نفس الطريق الذى سلكه هؤلاء لتكون مـعهم فى الآخـرة ، فكأنك تطلب الدرجـة العالية فى الجنة ؛ لأن كل مَنْ ذكـرناهم لهم مقام عَالٍ فى جنة النعيم .

وهكذا فإن الطلب من الله سبحـانه وتعالى هو أن يجعلك تسلك الطريق الـذى لا اعوجـاجَ فـيـه ، والذى يُوصّلك فى أسرع وقت إلى الدرجة العالية فى الآخـرة .

قال تعالى :

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ﴾

[النساء]

ولا توجد رفقة أفضل من هذه ، ولذلك فالشيطان يريد أن يُفسد علينا هذه الرُّفقة ، فيقول مُتوعّداً بني آدم :

﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف]

أي : أن إبليس لا يجتهد في إغواء مَنْ باع نفسه للمعصية ، وانطلق يخالف ما أمر به الله ، فالنفس الأمّارة بالسوء لها شيطانها ، وهي ليست محتاجة إلى إغواء لأنها تأمر صاحبها بالسوء ، ولذلك فإن إبليس لا يذهب إلى الخمارات وبيوت الدعارة ، ويبذل جهداً في إغواء مَنْ يجلسون فيها ، لأن كلَّ مَنْ ذهب إلى هذه الأماكن .. هو من شياطين الإنس .

ولكن إبليس يذهب إلى مهابط الطاعة وأماكن العبادة ، هؤلاء يبذل معهم كل جَهْده وكل حيله ليصرفهم عن عبادة الله ، ولذلك لا بُدَّ أن نتنبه إلى أن إبليس لم يَقُلْ : لأقعدنَّ لهم على الطريق المعوج ، فالطريق المعْوج بطبيعته يتبع الشيطان ، فإبليس يريد أهل الطاعة ، يُزيِّن لهم المعصية ، ويُغريهم بالمال الحرام .

وقد أصرَّ الشيطان على غواية الإنسان ، حتى لا يكونَ هو العاصي الوحيد ، فما دام عصى وطُرد من رحمة الله ، لماذا يكون هو العاصي الوحيد ؟ لماذا لا يكون الكُلُّ عاصياً ؟

وإذا كانت معصية الشيطان بسبب عدم السجود لآدم ، فلماذا لا يأخذ أولادَ آدم معه إلى النار ؟

وعداوة الشيطان هي عداوة مُسْبقة ، فقد امتنع الشيطان عن السجود لآدم بحجة أنه خَيْر من آدم ، وحذر الله آدم ، ولا بُدَّ أن آدم عليه السلام قد نقلَ هذا التحذير لذريته وأعلَمهم أن الشيطان عدو .

ولكن الغفلة حين تُسيطر على النفوس تُفسح مجالاً للشيطان لينفذ إلى نفس الإنسان ، والشيطان لا يأتي للعاصي الذي تُغويه نفسه ، لأن العاصي يكفيه مؤونة هذا ؛ لذلك يأتي الشيطان للطائع ليُفسد عليه طاعته .

ولهذا يقول الله عنه :

﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ .. (١٦) ﴾ [الأعراف]

إذن : فمقعَدُ الشيطان ليس في الخمارة أو في مكان فسَاد ، إنما يجلس على باب المسجد ، ليفسد على كل ذاهب إلى الطاعة طاعتَه .

فالشيطان لن يأتيَ على الصراط المعوجَ ، لأن الذى يسير على الصراط المعْوج ، والطريق الخطأ لا يريد شيطاناً ، فهو مريح للشيطان ، ويُعينه على مهمته ، فيكون وليَّه ، فأولياء الشيطان هم كل المخالفين للمنهج وهم نُصَراء الشيطان .

وفى هذا إجابة لمَنْ يقولون : إن الوساوسَ تأتينا لحظةَ الصلاة ، والصلاة ـ كما نعرف ـ هى أشرف موقف للعبد ، لأنه يقف بين يدَىْ الرب ؛ لذلك يحاول الشيطان أنْ يُلهِي الإنسانَ عنها حتى يحبس عنه الثواب .

وهذه الوساوس ظاهرة صحية فى الإيمان ، ولكنها تحتاج إلى اليقظة ، فساعةَ ينزغُ الشيطانُ الإنسانَ نزغةً فليتذكر قول الحق :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

والاستعاذة تعنى طلب العَوْن والملجأ والحفظ ، وأنت لا تطلب العون ، ولا تلجأ ولا تستجير إلا بمَنْ هو أقوى ممن يريد أن ينالك بشرٍّ .

ومعلوم أن الشيطانَ له من خفَّة الحركة وقدرة التغلغل ووسائل التسلل الكثير ؛ لذلك فينبغى ألاّ نستعيذ بمثله أو بمَنْ هو دونه ، ولكنك تستعيذ بخالق الإنس والجن

وجـمـيع المخلوقـات ، وهو القـادر على أنْ يُعطّل فـاعليـة الشيطان .

وسبحانه سميع عليم ، فحين تستحضر معنى الاستعاذة وأنت مـشـحون بالإيمان وتـلجأ إلى مَـنْ خلقك وخلق ذلك الشيـطان ، عندئذ لا بُدَّ أن يهرب الشـيطان من طريقك لأنه يعلم أنك تلجأ إلى الخالق القوى القادر ، وهو ليست له قوة على خالقه .

والخالق سبحانه بيَّن لنا طـريق الهدى وطريق المعصية ، ثم ترك لنا أن نخـتارَ طاعـة الله ورحمـته ، أو مـعصـية الله وعذابه ، ولم يُعطِنا الحق تبارك وتعالى هذا الاختيار إلا فى فتـرة محدودة هى حـياتنا فى الدنيا ، كـما أنه سبـحانه لم يُعْطنا الاختيار فى كل أحداث الدنيا ، بل أعطاه لنا فى المنهج فقطَ ، فى الطاعة أو المعصية .

والله سبحانه وتعالى أعطانا الاخـتيار لأنه يريد مِنْ خلقه مَنْ يُطيعه وهو قـادر على معصيـته ، ويؤمن به وهو قادر على عدم الإيمان ؛ لأن هذه تثبت صفة المحبوبية لله .

الخلق المقهـور لله يأتى له قَهْراً ، لا يقدر على المعـصية ، وهذا يثبت القـهـر والجبـروت لله ، ولكن الحـق سبـحـانه وتعالى أراد خَلْقاً يأتيه عن حُبٍّ .

وقد يكون هذا الحب من أجل عطاء الله فى الآخرة ونعيمه وجنته ، فلا يضنُّ الله على عباده بها ، وقد يكون عن حب لذات الله .

من هنا كان حديث الإمام الشعراوى عن الطاعة والمعصية ، الفضيلة والرذيلة ، طريقان متناقضان أحدهما يهدى إلى الجنة ، والآخر يُؤدِّى إلى عقاب الله فى النار ، فأيُّهما تسلك يا مَنْ آتاك الله العقل ؟

الأمر واضح ، فلماذا يغالط العصاةُ أنفسهم ، ويستسلمون لهواهم وشيطانهم ؟

لا شك أن هذه غفلة منهم تحتاج منهم لوقفة يضعون فيها نهاية لاسترسالهم فى فعل المعاصى والشرور .

رحم الله صاحب النفحات الربانية ، وجزاه خير الجزاء عن إشراقاته ولمحاته النورانية .

الطاعة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء:٥٩]

هناك حيثيات توجب هذا الأمر من الله تبارك وتعالى لعباده فنحن - ولله المثل الأعلى - نلحظ بعد صدور حكم من قاضٍ في محكمة أنه يُصدر حيثيات لهذا الحكم ، وهذه الحيثيات هي التبرير القانوني للحكم سواء كان بالعقوبة أو البراءة .

إذن . . فالقاضي يحكم بناء على حدوث وقائع مطابقة لمواد القانون .

وعلى هذا فحيثيات أي حكم هي التبريرات القانونية التي تدل على سند هذا الحكم .

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيه نلحظ أن الحق سبحانه لم يقل: «يا أيها الناس أطيعوا الله وأطيعوا الرسول» ولكنه سبحانه وتعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ .

إذن .. فالحق سبحانه وتعالى لم يكلف مطلق الناس بأن يطيعوه، وإنما كلف مطلق الناس أن يؤمنوا به .

إذن .. فحيثية الطاعة لله ، وللرسول ﷺ نشأت من الايمان بالله تعالى وبالرسول ﷺ ، وهذه عدالة من الخالق سبحانه وتعالى فهو سبحانه لم يكلف واحداً أن يفعل فعلا إلا اذا كان قد آمن به تعالى ، وآمن بالرسول ﷺ مبلغا ومشرعاً ، ولذلك نجد كل تكليف من الله تعالى يبدأ بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النساء:٥٩] .. إذن فحيثية طاعة الله تعالى، وطاعة الرسول ﷺ هي الايمان.

ولذلك نقول دائماً : إياكم أن تقبلوا على أحكام الله بالبحث في عللها أولا ، ثم الإيمان بها ثانيا، ولكن أقبلوا على أحكام الله أولاً واسمعوا وأطيعوا ، واخضعوا ، واخشعوا ثم من بعد ذلك لا مانع من أن يقوم العقل بالتدبر والتامل ليفهم شيئًا من الحكمة التي من أجلها تم تحريم هذا الشيء أو ذاك ؛ أقول بعض الحكمة وليس كل الحكمة ، ذلك أن حكمة الله لا تتناهى ولا تدرك ولا يحاط بها.

وهناك فرق بين أمر البشر للبشر وأمر الله تعالى للمؤمنين به، فإن أمر الله للبشر تسبقه العلة وهي أن الإنسان قد آمن به،أما أمر البشر للبشر فمنهم من يقول مثلاً : أقنعني حتى أفعل ما تامرني به ، لأن عقلك ليس أكبر من عقلي ، ولست بأقدر على الفهم

مني والإنسان لا يصنع شيئاً صادراً إليه من بشر إلا إذا اقتنع به ، وأن تكون التجارب قد أثبتت لك أن من يأمرك بهذا الأمر ، أنه لا يغشك فتأخذ كلامه مُصدَّقًا ، أما المساوى لك فأنت لا تأخذ كلامه على أنه واجب التنفيذ بأنه الإله الواحد الذى خلقك وأوجدك ، ومنحك مقومات حياتك وهو سبحانه الغنى عنك ، وعن الكون كله .



الطاعة محبوبية الله سبحانه وتعالى

الحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا أن نؤمن به فهذه الطاعة ليست لصالح الله ولكن هى لصالح البشر . فالله سبحانه قد خلقنا وهو غنى عنا ، ولا يطلب منا شيئا لصالحه، ثم ان طاعتنا لا تضيف إليه سبحانه شيئاً ، وحتى خلقه لنا لا يضيف له صفة جديدة ، بل هو سبحانه خالق قبل أن يخلقنا.

الحق سبحانه وتعالى يريد منا الطاعة باختيارنا ، لا بالإكراه.. ولا بالقهر . فالعبد يعبد الله تعالى لأنه سبحانه وحده المستحق للعبادة ، يعبده طاعة له باختياره . فالعبد كما هو معلوم منحه الله تعالى حق الاختيار في أن يؤمن أو لا يؤمن، فإذا اختار الإنسان الطاعة على المعصية فهو محب لله فعلا ، فهناك فرق بين من يقهره الله على الطاعة، وبين من يذهب إلى الطاعة باختياره.

❑❑❑

الستر على الناس

يقول رسول الله ﷺ : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً . فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلِمَ وعلَّم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أُرسلت به » .

إذن .. فالله سبحانه وتعالى قد شبه الناس بالأرض وقسمهم إلى ثلاثة أقسام .

القسم الأول : قسم علم الهدى فانتفع به ، ثم نقل ما عنده إلى الغير فنفع غيره ، وهؤلاء مثلهم كمثل الأرض الخصبة التى ارتوت فأنبتت الزرع .

القسم الثاني : هم الذين يحملون المنهج ولا يعملون به ولكن يبلغونه إلى الناس ، وعن هؤلاء يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)** ﴾ [الصف] فهؤلاء مثل الأرض التى حجزت الماء فشرب منه الناس ولكنها لم تأخذ منه شيئا ولم تنفع نفسها كما نفعت غيرها .

وعلى المسلمين فى هذه الحالة أن يأخذوا علمهم ويدعوا عملهم، ويجب عليهم ألا يعرضوا بهم ويكلوهم إلى الله تعالى لعله يهديهم أو يشرح صدورهم للعمل بما هم عليه من علم خاصة وأن التعريض بهم أو الفرح فيهم ، يحور الآن على ما هم عليه من دين وليس على ما يفعلونه .

وفي الحديث: «من ستر مسلمًا ستره الله فى الدنيا والآخرة»(١)، لأن من يعلم أمرًا ما عن إنسان لا يصح أن يفضح ذلك الإنسان فليس هناك إنسان معصوم إلا الأنبياء والرسل ، ولذلك فإن لكل إنسان زلات ، كذلك إذا رأيت زلة لعالم من العلماء فاسترها حتى ينتفع الناس بعلمه ، لأنك إن أذعتها وانصرف الناس عنه ، ولم يأخذوا من علمه ما كان من الممكن أن ينتفعوا به فى الدنيا والآخرة وقديماً قال الشاعر:

خذ بعلمي ولا تركن إلى عملى وخلى العود للنار

القسم الثالث : وهم الذين لم ينتفعوا بمنهج الله تعالى ، ولا نفعوا الناس به.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٦٩٩] والترمذى [١٤٢٥] وأبو داود [١٤٥٥] وابن ماجه [٢٢٥] وأحمد فى المسند [٧١١٨] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه . .

إذن .. فمنهج الله تعالى كالمطر الذى ينزل من السماء ، مرة على أرض تنتفع به وتنفع الغير ، ومرة ينزل على أرض تنتفع به الأرض ولا تنفع غيرها، ومرة ينزل على أرض لم تنتفع هى به ، ولا نفعت به الغير .

❑❑❑

التوكل على الله

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩]

إن فائدة الإيمان في هذه المعادلة الجميلة .. أن الجوارح تعمل وعليها أن تأخذ بأسباب الله ، والقلوب تتوكل على الحق سبحانه وتعالى ، فالفلاح إذا أراد الزراعة لابد أن يختار البذور ، ويحسن التسميد ، وأن يقوم بحرث جيد للأرض ، وأن ينتظم في مواعيد الري ، وأن يحافظ على الزرع من الصقيع مثلاً بتغطيته ، فهذا كله من عمل الجوارح ، وبعد ذلك تتوكل القلوب على الحق سبحانه وتعالى .. إذن فلا يتأتى أبدا للفلاح أن يقول : المحصول آت لأنني أحسنت أسبابي .. لكن المؤمن يتذكر دائما الحقيقة وهي أن فوق الأسباب خالق لها ، فيقول : لقد فعلت كل ما أستطيع واستنفدت كل أسباب اتقان العمل ، الله تعالى يقدر لي الخير ويبارك في زرعتي .

لقد جاء الإسلام بهذه المعادلة، ليحقق الإيمان لإنه له طلاقة القدرة يخلق بأسباب ، ويخلق بغير أسباب ، فالأسباب هي لجوارح البشر ، وفوق الأسباب قادر حكيم : فالإنسان المؤمن حين يعمل فهو يأخذ بالأسباب ، وحين يتوكل المؤمن فإنه يرجو عطاء الحق سبحانه وتعالى خالق الأسباب .

إذن .. فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، وهكذا يجب على كل مؤمن أن يضع تلك المعادلة الجميلة فى بؤرة شعوره دائما.

ولا يظن ظانّ أن التوكل هو توقف الجوارح عن العمل ، فهذا هو التوكل الكاذب، والدليل على كون هذا اللون من التوكل كاذبًا ، أن صاحبه يترك العمل فيما فيه مشقة ويزعم التوكل ، والأمر السهل لايتوكل فيه .

إن الذى يأخذ بالتوكل الكاذب هو الذى يمتنع عن العمل، ولا أحد فينا يرى رجلا من هؤلاء يأتى إليه الطعام ولا يمد يده إليه ويتناوله ، إننا نقول لمثل هذا الرجل: لو كنت صادقا فى التوكل إياك أن تمد يدك إلى لقمة لتضعها فى فمك واجعل التوكل الكاذب يقذف باللقمة إلى فمك .

ومعلوم أن الإسلام ينهى عن التوكل الكاذب ، وبلادة الحس الإيمانى، لذلك الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران:١٥٩] ولنتأمل كلمتى ﴿ عَزَمْتَ ﴾ و﴿ فَتَوَكَّلْ ﴾ فنرى أن العزم يقتضى عزيمة ، والتوكل يقتضى إظهار العجز، لأن معنى توكل الإنسان أنه يعلن عجز أسبابه، ويلجأ إلى من عنده قدرة ليست عنده ونحن نرى إنسانا يقول: لقد وكلت فلانا فى هذا الأمر لأننى لا أقدر عليه .. إن معنى هذا إظهار عجزه ، وأنه ذهب إلى من عنده القدرة ليفعل ما يعجز هو عنه .

فالتوكل الإيمانى هو تسليم زمام أمور الإنسان إلى الحق سبحانه وتعالى ثقة منه بحسن تدبيره وهذا هو التوكل المطلق . ولما كان الله تعالى هو سبحانه الذى أعطى الإنسان الأسباب فعلى الإنسان ألا يرد يد الله الممدودة بالأسباب ويقول له : عاونى يارب ، أو اصنع لى . . عليه قبل ذلك أن يستنفد كل الأسباب .

والحق سبحانه يقول فى فاتحة الكتاب : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذا يعنى أننا نعمل ونطلب العون من الله ، ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩] لماذا يحبهم؟ لأن المؤمنين به قد أخذوا بأسبابه ثم توكلوا عليه بعد ذلك .



بين التوكل والتواكل

التوكل على الله يقتضى أن يعلم الإنسان أن لكل جارحة فى الإنسان مهمة إيمانية تقف بالفكر عندما شرع الله .. فالأذن تسمع فإن سمعت أمرا من الحق فهى تنفذ الأمر، وإن سمعت الذين يلحدون فى آيات الله فإنها تُعرض عنهم .. واللسان يتكلم لذلك لا تقل به إلا الكلمة الطيبة .. فلكل جارحة عمل ، وعمل جارحة القلب هو اليقين والتوكل، وحيث إن التوكل على الله هو عمل القلب . فإياك أن تنقل عمل القلب إلى عمل الجوارح ، فتنقل التوكل إلى الجوارح فلا تعمل .. إن السعى للقدم ، والعمل لليد والتوكل للقلب فلا تنقل عمل القلب إلى القدم أو اليد ، لذلك فالتوكل الحقيقى هو أن الجوارح تعمل القلوب تتوكل فكم من عامل يعمل بلا توكل فتكون نتيجة عمله إحباطا .

إننا نجد أن الزارع الذى لا يتوكل على الله وتنمو زراعته بشكل جيد ومتميز قد تهب عليه عاصفة فيصاب الزرع بالهلاك ويكون الإحباط هو النتيجة.

إنك أيها المؤمن عليك أن تحذر إهمال الأسباب ، وإياك أيضا أن تفتن الأسباب .. إنك إن أهملت الأسباب فأنت غير متوكل بل

متواكل ، فالتوكل عمل القلب ، وأنت تنقل عمل القلب إلى الجوارح إن الجوارح عليها أن تعمل ، والقلوب عليها أن تتوكل ، وإذا قال لك واحد : أنا لا أعمل بل أتوكل على الله . . قل له : هيا لنرى كيف يكون التوكل، وأحضر له طبق طعام يحبه ، وعندما يمد يده إلى الطعام قل له: لا اترك الطعام يقفز من الطبق إلى فمك . . إن هذا لفهم كاذب للتوكل!! .

❑ ❑ ❑

فعل الخير

عندما ننظر فى معنى كلمة «خير» نجد أن المقابل لها كلمة «شر» لكن كلمة خير هى الكلمة الوحيدة فى اللغة التى يكون فيها الاسم مساويا لأفعل التفضيل إذا أضيفت لها «مِن» لتصبح «خير من» .

والخير هو ما يأتى بالنفع ، ولكن مقياس النفع يختلف باختلاف الناس فواحد ينظر إلى النفع العاجل، وواحد ينظر إلى نفع آجل. ولنضرب على ذلك مثلا - ولله المثل الأعلى- بأخوين الأول يستيقظ مبكرا ويذهب إلى مدرسته ، ويستمع إلى أساتذته ، ويواظب على قراءة دروسه واستيعابها، والآخر يوقظونه من النوم بمنتهى الصعوبة فإذا استيقظ فاستيقاظه قهر ، ويخرج من المنزل لا إلى المدرسة ، ولكن ليتسكع فى الشارع ويلعب مع هذا وذاك .

إن كلاهما يحب الخير لنفسه ولكن الخلاف بينهما يكون فى تقييم الخير ، واحد يفضل الخير الآجل، وآخر يفضل الخير العاجل ولو كان فيه ضياع لحياته .

واحد يفضل أن يتعب عشر أو خمس عشرة سنة ليكون إنسانا ذا مكانة فى المجتمع، وآخر يفضل أن يلعب الآن ولو كان ذلك فيه دمار لمستقبله .

مثال آخر فلاح يفلح الأرض ، ويحسن رعايتها ، ويعتبرها فضلا من الله تعالى فيرعي حق الخالق فيما وهب، ويروى الأرض ويسمدها ، ويرجو الحق أن يبارك له فى الرزق فيمر الوقت وينضج الزرع فيحصده ويملأ الرجل مخازنه برزق الله الوفير ، ويزكى ماله وزرعه ، ويظل طوال العام يأكل هو وأبناؤه مما رزقه الله نتيجة لتعبه وكده ، وآخر لا يرعى حق الله فيما وهبه من أرض ويتركها ويهملها ، ولا يرهق نفسه ، ويستسلم للكسل، ويأخذ رزقه من السرقة أو التسول.

إذن .. فهناك معايير مختلفة لحب الخير ، فلماذا نرهق أنفسنا فى وضع مقاييس للخير ؟، إن الحق هو الذي أنزل الشريعة الغراء وبها كل معايير الخير .. إن معايير الخير التى من وضع الخلق قد تختل ، لكن معايير الخير التي وضعها الحق لا تختل أبداً.



الصدق

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩] أى يا من آمنتم بالله اتقوا الله أى اجعلوا بينكم وبين الله وقاية . . ولكن المفروض أن المؤمن يكون فى معية الله فكيف يطلب الحق سبحانه وتعالى منا أن نجعل بيننا وبينه وقاية ؟ .

نقول . . أى اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال فى الله وقاية ، وهنا يأتى من يتساءل بأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ ويقول سبحانه : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فكيف ينسجم المعنى؟

نقول : إن المعنى منسجم ؛ لأن النار جند من جنود جلال الله تعالى ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : اجعلوا بينكم وبين النار التى هى من جنودى صفات الجلال وقاية .

وقول الحق سبحانه وتعالى ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أى التحموا بهم فتكونوا فى معية الله ، فإذا جاء من بعدكم وجدوكم من الصادقين .

إذن . . فـ ﴿مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ سابقة ﴿لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف:٥١] .

ولكن من هم الصادقون ؟

مادة الكلمة «الصاد ، والدال ، والواو» تدل على أن هناك نسبا يجب أن تتوافق مع بعضها البعض فما معنى هذه النسب؟ .

إن الإنسان حين يتكلم فإنه قبل أن ينطق بالكلمة تمر على ذهنه نسبة ذهنية قبل أن تكون نسبة كلامية مثل إذا أردت أن أقول: «محمد زارني» قبل أن تسمع لساني ينطق بهذه العبارة فإنها تمر على ذهني أولا ؛ والمستمع لا يدري شيئا عنها ، فإذا قلت لي كلاما أعلم أن النسبة الذهنية جاءت إلى عقلك فترجمها لسانك إلى نسبة كلامية فنطق بها فلما سمعها السامع عرف أولا النسبتين، وقد تكون هذه النسبة صحيحة وواقعة .. حينئذٍ يكون الصدق ، وقد تكون غير صحيحة ويكون الكذب .

إذن .. فالصدق هو أن تطابق النسبة الكلامية الواقع ، وإذا لم تتطابق فذلك هو الكذب ، فكل كلام يقال محتمل الصدق أو الكذب.. والصدق هو الذي يجمع كل خصال الإيمان ، وجاء في الأثر حديث البدوي الذي جاء إلى النبي ﷺ وقال له: فيّ ثلاث خصال لا أقدر عليها : « الأولى النساء ؛ والثانية الخمر ؛ والثالثة الكذب ؛ وقد جئتك في خصلة من الخصال الثلاث أتوب منها فقال له رسول الله ﷺ كن صادقاً وما عليك » فلما ألحت عليه خصلة شرب الخمر قال: وإن سألني رسول الله ﷺ «أشربت الخمر» فماذا أقول له ؟ لابد أن أقول له الصدق فامتنع عن شرب الخمر ، وعندما نظر إلى امرأة واشتهاها قال : إن سألني رسول

الله ﷺ « ماذا فعلت مع النساء »؟ فماذا أقول له ؟ لابد أن أقول له الصدق فامتنع عن النساء ؛ وهكذا منعه الصدق من المعاصي ؛ ولذلك عندما سُئل رسول الله ﷺ أيسرق المؤمن؟ قال نعم أيزني المؤمن؟ قال نعم ، أيكذب المؤمن ؟ قال لا (١)

والله سبحانه وتعالى ينبه إلى أنه لابد أن يكون كلامك مطابقا لواقع فعلك . . وإياك أن تقول كلاما وفعلك غيره ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)**﴾ [الصف] .

❑❑❑

---

(١) روى أحمد في المسند [٢/ ٩٩٠] عن صفوان بن سُليم قال : قيل يارسول الله أيكون المؤمن جبانا؟ فقال نعم فقيل له : أيكون المؤمن بخيلاً؟ فقال : نعم فقيل له : أيكون المؤمن كذابا؟ فقال لا .
قال الحافظ المنذري ، رواه مالك مرسلاً .

الصبر

الصبر هو حبس النفس بحيث ترضى بمكروه نزل بها ،والمكروه له مصدران :

الأول : أمر لا غريم لك فيه فإن أصابك مثلا مرض أو عجز ، أو فقدت أحد أولادك بموت، فهذا ليس لك غريم فيه، ولا تستطيع أن تفعل معه شيئا .

والثاني: أمر لك غريم فيه كأن يعتدي عليك أحد ، أو يسرق مالك أو غير ذلك.

الأمر الذي لا غريم لك فيه : ليس أمامك إلا الصبر ، والأمر الذي لك غريم فيه تكون نفسك مشتعلة برغبة الانتقام؛ ولذلك يحتاج إلى صبر أكبر ، وإلى صبر أطول ، لأن غريمك أمامك، فنفسك تطالبك، بالانتقام منه ، ولذلك يفرق الله سبحانه وتعالى بين الصابرين فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ **وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ﴾ [لقمان:١٧] ويقول سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿ **وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ﴾ [الشورى:٤٣] ووجود اللام هنا يدلنا على أننا نحتاج إلى الصبر على غريم لنا ، و إلى قوة إرادة وعزيمة حتى نمنع أنفسنا من الانتقام .

والصبر له دوافع ، فمن الناس من تأتيه أحداث شديدة فيظهر أمام الناس أنه أقوى من الأحداث التي لا تستطيع أن تنال منه ، وأنه جلد ، وأنه صبور فهذا صبر ليس لابتغاء وجه الله ، ولكنه صبر ليبين نفسه أنه فوق الأحداث ، أو صبر أمام أعدائه حتى لا يشمتوا فيه ، فقد قال الشاعر :

وتجلدى للشامتين أريهمُ　　أنى لريب الدهر لا أتضعضع

ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نصبر ابتغاء وجهه الكريم، فعندما ترى أمرا يحدث لك فاعرف أن فيه خيرا كثيرا ، واعلم أن لله فيه حكمة ، ولو أنك خيرت بين ماكان يجب أن يقع وبين ما وقع لاخترت ما وقع .

إذن .. فالذي صبر ابتغاء وجه الله ينظر إلى مناط الحكمة في مورد القضاء عليه ، ولذلك يقول : أحمدك ياربي على كل قضائك ، وجميع قدرك حمد الرضا بحكمك لليقين بحكمتك .. هذا تيقن بالحكمة فلا تأخذ الأمور بسطحية .

❑ ❑ ❑

ألوان الصبر

إن الصبر فى البأساء هو الصبر على ما يعترى الإنسان من بؤس أو فقر ، أما الصبر فى الضراء فهو الصبر على آلام البدن من مرض أو علل أو عاهات ، والصبر حين البأس هو الصبر الذى يُطلق على الصبر والمصابرة فى القتال أثناء الالتقاء بالعدو . . إذن فنحن أمام ثلاثة ألوان من الصبر :

الأول : صبر على حال بؤس أو فقر .

الثانى : الصبر على الابتلاء فى البدن .

الثالث : الصبر فى لقاء العدو .

ولذلك يروى أن النبى الكريم ﷺ قال الله تبارك وتعالى: إذا ابتليت عبدى المؤمن فلم يشكنى إلى عُوَّاده أطلقته من إسارى ثم أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه ثم يستأنف العمل . معنى ذلك: أن الإنسان إذا أصابه الله بأمر من أمور الابتلاء الذى يؤلم، ولم يتذمر العبد بالشكوى إنما صبر على ذلك الابتلاء فإن مات فإن الله تعالى يغفر له ويرحمه ، وإن عافاه كانت عافيته بلا ذنب .

لكن لا يجب أن نفهم من ذلك أن يستسلم الإنسان للأحداث أو الابتلاءات دون أن يبحث عن حلول لها عند الأطباء مثلا إن كانت مرضاً، أو أن يأخذ بأسباب الله لإزالة هذه النكبات ، علينا أن نفهم أننا يجب أن نأخذ بأسباب الله دون ضجر بما يمر علينا من أحداث .

❑❑❑

البر

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة:٢] فما هو البر ؟

البر : ما اطمأنت إليه نفسك ، والإثم : هو ما حاك فى صدرك وخشيت أن يطلع عليه أحد ، بمعنى: أن الأمر الذى تفعله وتخاف أن يطلع عليه الناس، هو الإثم ، لأنه لو لم يكن إثما لأحببت أن يراك الناس وأنت تفعله .

إذن . . فقول الحق سبحانه : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ هو أن كل جماعة من الناس تأتى لتتعاون على مشروع خيرى فنقول لها : فليبارك الله لك ونشد على يديك ولكن نحذرك من شىء واحد هو ألا تجعلى لجمعياتك نشاطا ينسب إلى غير دينك ، مثال ذلك تلك الجمعيات المسماة بـ: «الروتارى» أو ما شابه ذلك من الأسماء المشبوهة والوافدة إلينا من الغرب ويقال إن نشاطها خيرى ، لماذا لا تقدمون الخير مادام منكم ولإخوانكم باسم الإسلام .

إن الخير كل الخير ألا ننخرط فى هذه الجمعيات فإن بدا فيها خير ظاهر فما تبطنه من شر أضعاف مضاعفة ، وإن كان لواحد منا طاقة على العمل الخيرى فليفعل ذلك من خلال دينه وعقيدته،

وليعلم كل إنسان أن الإسلام طلب منا أن تكون كل حياتنا للخير وذلك ما يجب أن يستقر فى الأذهان حتى لا يأخذ الظن الخطأ كل من يصيبه الخير من هذه الجمعيات أن الخير قادم من غير دين الإسلام أن من أميز ما يميز المؤمن.. ﴿ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ [الأنبياء:٩٠]

وليعلم كل مسلم أنه ليس فقيرا إلى القيم حتى يتسولها من الخارج ، بل إن فى دين الإسلام ما يغنينا جميعا عن هؤلاء ، فإذا كنا تفعل الخير ، ونقدم الخدمة الاجتماعية للناس ، فلماذا لا تسميها بسمياتنا نحن ، ونأخذ أهدافها من ديننا نحن ، لماذا نجرى وراء كل ما هو غربى ؟ ..

ولنقرأ جميعا قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

[فصلت :٣٣]

❑❑❑

التعاون على البر

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] .

الحق سبحانه وتعالى يريد منا أن تنمى الخير ونمنع الهدم ، وما دمنا نتعاون على الخير فعلى كل منا أن يعرف أنه لايستطيع وحده أن يقيم كل أبنية الخير .. إننا نسأل الفقير فنجده أحيانا صاحب ثوب واحد ، ويتناول وجبة واحدة ، وعندما تسأله من أين تأتى برغيف الخبز فإنه يشير إلى البقال الذى أعطاه هذا الرغيف . وهذا يلفتنا إلى أن الله قد سخر هذا البائع أن يأتى بالخبز ليشترى منه كل الناس، ولو سألت البائع من أين أتيت بالخبز الذى تبيعه؟ لقال لك إنه من المخبز.

وعندما نذهب إلى المخبز فنجد بعض العمال يعجن الدقيق وآخر يخبز ، ولو سألت صاحب المخبز من أين أتيت بالدقيق إلى المخبز؟ لقال لك من المطحن.

وفى المطحن نجد عشرات العمال والمهندسين يعملون من أجل طحن الدقيق ، وهذا يلفتنا إلى قدرة الله سبحانه الذى سخر بعضا من المموليين الذين اشتروا هذه الآلات الضخمة التى لا يستطيع فرد واحد أن يشتريها بمفرده ، وهذه الآلات الضخمة

قامت بإنتاجها معامل ومصانع ضخمة فيها الكثير من العلماء الأفذاذ الذين قاموا بدراسة الحركة والطاقة من أجل تصميم هذه الأجهزة .

إن الإنسان عندما يأكل رغيفا واحدا يعلم أن هناك عشرات من الدول والأفراد يعملون من أجل هذا الرغيف ، وتلك مشيئة الحق سبحانه وتعالى من أجل تنظيم كل حركة الحياة ، فالبقال الذى عرض الخبز عاون الناس ، وكذلك الخباز ، ومن قبله الطحان والعجان ، والذى استورد الآلة ، والذى صمم الآلة والكلية التى علمت المهندس الذى صممها.

إذن . . فالكل يتعاون من أجل رغيف الخبز، ولا أحد منا يفكر فى هذا الرغيف إلا ساعة أن يجوع ، فحركة الحياة كلها تم بناؤها بالتعاون بين خلق الله كلهم، فالكل مسخر لخدمة الكل.



كظم الغيظ

يقول الحق سبحانه وتعالى فى وصف المتقين ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]

إن من صفات المتقين كظم الغيظ ، فعندما جاء إلى الرسول ﷺ خبر مقتل عمه حمزة وقالوا له : إن هندا انتزعت كبده وأكلته ، فسأل رسول الله ﷺ هل مضغتها ؟.

قالوا : لا . . لفظتها .

لقد جعلها الله عصية عليها ، فقال رسول الله ﷺ ما كان الله ليعذب بعض حمزة فى النار كأنها هى ستذهب إلى النار ولو أكلتها لتمثلت فى جسدها خلايا كبده وعندما تذهب هند إلى النار فمعنى ذلك أن بعض حمزة قد دخل النار ، لذلك فكان لابد أن تكون كبد حمزة عصية عليها وتلفظها ولما كان مقتل حمزة رضى الله تعالى عنه من المواقف التى سببت ألماً شديداً لرسول الله ﷺ، قال ﷺ : لأن أظفرني الله بهم لأقتلن منهم سبعين، وهنا جاء قول الحق : ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾.

إن الحق سبحانه وتعالى يأخذ ذروة الحدث وقمته فى رسول الله من أكثر شىء اغتاظ منه ، فيرشده سبحانه ويعلمه ، وينزل عليه

القرآن الكريم وفيه : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦] .

ذلك حتى نعرف أن الله لا ينفعل لأحد ، لأن الانفعال من صفات الأغيار ، لذلك أنزل الله سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ فكان كظم الغيظ وكانت التوجيهات الالهية لرسول الله ﷺ فى أحداث أُحد ثم بعد ذلك يشيعها الحق قضية عامة لتكون فى السلم كما كانت فى الحرب ، ولتكون أيضا معلماً ومرشداً للناس للارتقاء فى مراتب اليقين .

إن الأمور المعنوية مأخوذة من الحسيات، فأصل الكظم أن تملأ القربة ، والقربة هى وعاء نقل الماء عند العرب مصنوعة من جلد مقلوب ، فإذا ملئت بالماء شد على رأسها، أى: ربطت ربطا محكما عند فوهتها بحيث لا يخرج منها ما فيها، وهذا يسمى كظم القربة ، أى: ملؤها وربطها بشكل جيد .

والقربة بطبيعتها لينة ، فلو وضعت على ظهر الدابة أو حملها رجل دون كظمها حينئذ يندفع الماء خارجاً منها ، ولكن كظم القربة يجعل الماء لا يخرج منها .

كذلك كظم الغيظ يصنع فى النفس البشرية هياجا . ولا يمنع الله الهياج فى النفس، لأنه انفعال طبيعى ، وهذه الانفعالات الطبيعية لو لم يردها الله لمنع أسبابها فى التكوين الانسانى، ولكن

الحق يريدها لأشياء ، مثال ذلك الغريزة الجنسية فيريدها الله لبقاء النوع ولكنه يهذبها .

وكذلك الغيظ ، فهو طبيعة بشرية ، والإسلام لايريد من المؤمن به أن تكون عواطفه فى قالب من حديد، ولكن الإسلام يطلب من المؤمن أن ينفعل للأحداث الانفعال المناسب للحدث ، الانفعال المثمر ، لا الانفعال المدمر .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾[آل عمران:١٣٤] يبين أن هناك فرقا بين الانفعال فى ذاته الذى يبقى فى النفس وتكظمه، وبين العفو ، فالعفو هو : أن تخرج الغيظ من قلبك ، وأن تمحو كل أثر لما جرى ، وكأن الأمر لم يحدث، وهذه مرتبة ثانية . أما المرتبة الثالثة : فهى أن تنفعل انفعالا مقابلا فعندما تريد أن تعاقب فأنت تستبدل ذلك بالإحسان إليه .

إذن . . ففى الآية ثلاث مراحل :

الأولى : كظم الغيظ .

الثانية : العفو .

الثالثة : أن يتجاوز الإنسان الكظم والعفو بأن يحسن إلى المسيء إليه . . وهذا هو الارتقاء فى مراتب اليقين .

ولكن ما معنى الارتقاء فى مراتب اليقين ؟

إنه عندما لا تكظم غيظك وتنفعل ، فالمقابل لك أيضا أنك لاتستطيع أن تضبط انفعالك بحيث يساوى انفعاله ، ويكون المقابل لك ممتلئًا بالحدة والغضب ، بل قد يظل الغيظ آنذاك ناميًا، لكن إذا ما كظمت الغيظ ، انخفض فى المقابل لك الغضب وبذلك ستنتهى المشكلة .

❑❑❑

المعاملة بإحسان

الحق سبحانه وتعالى أمرنا بمعاملة الوالدين بالإحسان ، لأنهما السبب المباشر فى وجودنا ، وكما ربى الله عباده على النعم ، فالوالدان مكلفان من الحق أن يربيا الابن صغيرا . والإحسان للوالدين هو الأمر الذى يجب أن تزيد فيه الرعاية عن المطلوب ، فليست رعاية الوالدين مجرد نفقة مادية يؤديها الإنسان على كره منه ، إنما هى القيام برعايتهما بما يرتفع ويزيد عن حدود الرعاية التقليدية ، وإذا كان الله تعالى فرض على كل مؤمن أن يعامل إخوانه بالحسنى إلا أنه سبحانه خص وأكد على ثلاث طوائف هى :

الطائفة الأولى الوالدان :

إن رعاية الوالدين أمر لا يستحب فيه القيام بالواجب فى أقل الحدود ، وإنما يجب أن يكون أعلى بأكثر من المطلوب ، وحتى نفهم معنى الإحسان فلنا أن نعرف أن الذى يصلى الفروض الخمسة هو إنسان أدى ما عليه ، ولكن إذا جاء فى الليل وصلى عشر ركعات أو عشرين ركعة طلباً فى زيادة فى المثوبة والأجر من الله تعالى ، فذلك ارتقاء من مرتبة الأداء إلى مقام الإحسان . . وهو الذى يفتح للإنسان المؤمن الود مع الرحمن سبحانه وتعالى .

ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى يقول عن أصحاب مقام الإحسان:
﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

الله تبارك وتعالى يوضح مرتبة الإحسان فيصف سبحانه أهلها بأنهم لا يقومون فقط بما فُرض عليهم من فرائض ، بل يزيدون عليها فيدخلون بأنفسهم مقام الإيمان ، ثم يترقون بكثرة الطاعات وعمل الخيرات ومراقبة الله تعالى فى كل أمر فيدخلون إلى مقام الإحسان .

إنهم لا يقومون إلى الصلاة فى ميقاتها فقط ، ولكن يزيدون عليها بالنوافل ، ولا يقومون بالفرائض فقط ، ولكن يزيدون عليها بالاستغفار والذكر والتضرع إلى الله تعالى فى السَّحَر ، ولا يؤدون الزكاة فقط، ولكنهم يعتبرون أن أي مال لهم هم مستخلفون فيه ، ويعتبرون أن للسائل والمحروم حقًا فيه .. وهكذا يكون الإحسان .

إن الله أمر بالإحسان للوالدين وهو أن يقوم الابن بما يتجاوز ما هو مفروض لهم خشية لوم الناس، بل هو الارتفاع بمعاملة الأب والأم إلى مقام الإحسان ومرضاة الله تعالى، ووفاءً بحقهم عليه.

الطائفة الثانية : ذوو القربى :

إن الحق سبحانه وتعالى يحرض على السعى فى طلب الرزق ويرغب فيه، ليعود بالنفع على المجتمع كله، فعندما يعمل الإنسان عليه أن يَجِدَّ فى عمله ليعود ثمرة عمله عليه ويفيض منه ما ينفق على والديه وأقاربه ، ليس هنا فحسب فكل ضعاف المسلمين ، وأبناء السبيل يجب أن يكونوا فى باله حينما يسعى للرزق وعندما يعمل كل إنسان بهذا الفكر فلابد للمجتمع كله أن يرتقى ، ولسوف نجد دوائر الأقارب ترقى فى مستوى إنسانى لا يسمح بفوارق شاسعة فى مستويات الحياة ، وعندما ترقى دوائر القربى وتزدهر العلاقات الانسانية فإنه ينقى النفوس من جشع الثراء ولو على حساب أقرب الأقربين ، أو جشع تدمير الآخرين ، ومثال ذلك تلك السلسلة من العمارات السكنية التى تنهار من وقت لآخر التى أقامها الطمع الجاهل ، واستبد بأصحابها الجشع القاتل فأصاب المجتمع بكوارث ، إن تم علاجها ماديا فسوف تأخذ وقتا لعلاج آثارها النفسية ، وذلك لغيبة الإيمان فى قلب من أقامها ، وضاع الضمير فى سبيل الحرص على سرعة الثراء مما أودى بحياة ساكنى هذه المبانى إلى الهلاك .

إن الإحسان فى معاملة ذوى القربى يجعل من المجتمع الإنسانى مجتمعا متكافلا متآزراً فلن يجد فقيرا يعانى العوز ، ولن نجد مسكينا إلا فى أقل القليل ، ولذلك لنا أن نلحظ أن الحق سبحانه

وتعالى لم يشرع نظام الزواج وعلانيته إلا ليضمن سعادة الأفراد والمحافظة على الأنساب وضرورة التكافل الاجتماعى، فيجعل من الإنسان مسئولية إيمانية هى رعاية والديه وأقاربه ، فلن نجد فى دائرة القربى لرجل أعطاه الله المال الكثير وهو حسن الايمان من يشكو العوز ، لأن الارتفاع إلى مقام الإحسان يتطلب من الغنى أن يرعى حق الله فى ذوى قرباه .

الطائفة الثالثة : اليتامى :

الإنسان اليتيم هو الذى فقد الأب المسئول عن الرعاية ماديا ومعنويا . بينما نجد فى الحيوان اليتيم هو من فقد الأم ، ذلك أن الابن عند الحيوان يعتمد فى نموه وطعامه وتدريبه على الأم ، كما أن نسب الأبناء فى الإنسان يكون لآبائهم، أما فى الحيوانات فيصعب أن نجد هذا النسب، ذلك لأن الحيوانات لا تعرف نظام الزواج الذى كرم الله به الإنسان .

والأم فى المجتمع الإنسانى ترعى وتعطى حنانا وقيما ، والأب يعطى قدوة فى السعى والحصول على الرزق الحلال، ونحن نرى فى هذا العصر الكثير من النساء متخليات عن الأبناء ، ونرى الكثير من الآباء مشغولين عن أبنائهم ، كل ذلك جريا وراء نهج الحضارة الغربية التى يأخذون منها القدوة فى السلوك غير الناضج وننسى أن نأخذ منها بأسباب العلم الذى يمكن أن يرتفع بمجتمعاتنا إلى مستوى المجتمعات المتقدمة تكنولوجياً .

إن مهمة الأم فى الحياة شاقة فهى: حمل ورضاعة ورعاية لمدة ثلاثين شهرا ، لقد حملته كرها ووضعته ألما ثم تعهدته فى مهده بالعناية والرعاية واحتضنته حتى يبلغ سن النضج التى يصبح فيها قادراً على الأخذ عن أبيه ، وهى فى ذلك كله تعطى بحنان وحب ورقة مشاعر .

كذلك مهمة الأب فى الحياة شاقة إنه قدوة سلوكية للابن ، ورعاية كاملة عاطفيا وعقليا ، لذلك . فالرحمة واجب إيمانى من الابن لأبويه.



الحكمة

إن كلمة الحكمة تطلق فى الأصل على قطعة الحديد التى توضع فى فم الحصان لتلجمه حتى يتحكم فيه الفارس ، ذلك أن الحصان حيوان مدلل يحتاج إلى ترويض فقطعة الحديد التى توضع فى فمه تجعله محكوما من صاحبه .

والحكمة ضد السفه، والسفه كما تعرف هو أن نصنع الشيء دون دراية ، وهكذا تكون الحكمة هي أن يوضع مجال لكل حركة لتنسجم مع غيرها .

فالكون محكوم بالحق سبحانه وتعالى ، وهو الحكيم العليم الذى يضع لكل كائن إطاره وحدوده والحكمة فى عموم حركة الحياة :

- فالحكمة فى النحو أن تضع الكلمة فى مكانها وبإعرابها .
- والحكمة فى الفقه أن نستنبط الحكم الصحيح .
- والحكمة فى الشعر أن نزن الكلمات على التفاعيل .
- والحكمة فى الطب أن نعرف تشخيص المرض والدواء المناسب له .

والحكمة فى الهندسة هى أن تصمم المستشفى وفق احتياج المريض والطبيب إلى أجهزة للعلاج وأماكن لإجراء الجراحة، وكذلك تصميم أسلوب الإضاءة وبقية المرافق ، وتحديد أماكن المصاعد

ومخازن الأدوية وأماكن إعداد الطعام ، وأماكن النقاهة ، ثم أماكن العلاج الخارجى .

وهذا التصميم للمستشفى يختلف بحكمته عن تصميم منزل سكنى ، وتنظيم عمارة للسكنى يستوجب توزيع الشقق لراحة السكان جميعا ، وحكمة بناء منزل تختلف عن حكمة بناء قصر ، أو مكان عمل .

فالحكمة إذن . . هى التوفيق ، فإعداد مكان ليصلح لعمل معين أو وظيفة محددة يختلف عن أخذ مكان للسكن أو ليكون ديوانا حكوميا .

إذن . . فالحكمة هى وضع الشىء فى موضعه، نشهد ذلك فى أى آلة من الآلات ، فالآلة على سبيل المثال قد تكون مكونة من خمسين قطعة وكل قطعة ترتبط بالاخرى بمسامير أو غير ذلك، ومادامت كل قطعة فى مكانها فإن الآلة تسير سيرا حسنا، أما إذا توقفت الآلة لخروج قطعة عن موضعها أو كسرها فإننا نستدعى المهندس ليضع كل قطعة فى مكانها فتعود الآلة للعمل باستقامة ، ومثال ذلك ما يكون فى الوجود مبنيا على حكمة فلا ينشأ فيه فساد ، فإذا حدث الفساد فإنه ينشأ من حركات تحدث بدون أن تكون حكيمة .

وقديما على سبيل المثال كنا نرى الأسلاك الكهربائية دون عوازل فكان يحدث منها ماس كهربى ، وكلما نجد خطأ فإننا نعدل من تصنيعنا للشىء وهذه حكمة .

قديما كنا نجد جميع الأسلاك التى فى السيارة ذات شكل واحد فكان يحدث ارتباك عند الإصلاح، لكن عندما جعل كل سلك بلون معين فهذا ما يسهل عملية الإصلاح عند أى ارتباك وهذا حكمة .

إن الحكمة كما قلنا إذن هى وضع الشيء في موضعه ، ومادام الأمر كذلك فإن كل صانع يصلح لصنعته ويقدم لها دليل الصيانة الكامل ، ولما كنا نحن البشر خلقاً من خلق الله تعالى فهو سبحانه أعلم بمواطن الضعف والخلل فينا ، وكيفية معالجتها ، وسبحانه لم يخلقنا هملاً ولا عبثاً بل أرسل سبحانه الرسل وأنزل الكتب لتعالج داءات المجتمع وأمراضه ، فأعرضنا عنها وشرعنا لأنفسنا ما يوسوس حياتنا فاختلفت الموازين وانقلبت القيم وضاعت الأعراف بين الناس ، ودائما ما نقول إذا رأينا خللا فى أى مجتمع فلنعلم أن هناك شيئا قد ناقض حكمة الله تعالى ، وعندما نبحث عن العطب سوف نجده تماما مثل أى عطب فى أى آلة، فتأتى لها بالمهندس الذى يصلحها،وإذا ما حدث فساد فى المجتمع فإننا يجب أن نرده إلى خالق الخلق سبحانه ، من خلال كتاب ربنا سبحانه وسنة نبينا ﷺ .



العدل

كل إنسان منا لو أدى ما فى ذمته من حق للغير لما وجد التشاحن ، ولما وجدت الخصومة ، لذلك لاتوجد فى مثل تلك الحالة ضرورة للمحاكم ومجالس فض المنازعات ، ولكن الحق الذى خلق الخلق ، يعلم أن الانسان من الأغيار . لذا فمنهم من يغفل عن هذه القضية قضية أداء الحقوق فينشأ عنها الفساد فى الأرض ، لذلك قضى الحق تعالى بشىء آخر اسمه « العدل » فلو أن الإنسان قد أدى حقوق الغير كاملة لما احتجنا إلى المحاكم ، لأنه لن يوجد خلاف أصلاً .

لكن الحق سبحانه وتعالى وهو أعلم بمن خلق ومن علمه أن خلقه سيطغى بعضهم على بعض ، لذلك أوجد العدل للقصاص ممن يبغى على غيره ، وإعطاء كل ذى حق حقه قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء : ٥٨] .

والحق لم يقل إذا ائتمنتم فأدوا . . ولكنه سبحانه وتعالى قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النساء : ٥٨] .

فإذا حدثت الغفلة عن أداء الأمانة فالذى ينصر أداء الأمانة خلال الغفلة هو «العدل» ؛ فما هو العدل ؟ .

إننا نعرف أن الأمانة هي : أن تؤدي حقا أو متعلق حق في ذمتك للغير، ولكن العدل غير ذلك فهو تأدية للغير ، وذلك يكون عن طريق الحكم ، وهنا لا يكون هناك شيء متعلق للغير بذمتك ولكنه بشيء مكتوب أو مشهود عليه .

❑❑❑

مطلوبات الأمانة .. ومطلوبات العدل

كما أن آية أداء الأمانة عامة فلابد أن تكون آية العدل عامة أيضا فقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء : ٥٨] لا تخص هذه الآية الحاكم وحده ولكنها تخص كل واحد من البشر المكلفين ، فلو كنت محكما من طرف قوم ، ورضى الناس بك حكما بينهم فى خصومة ما فعليك أن تحكم بالعدل، وقد تكون لا ولاية لك على هؤلاء الناس ، ولكن أصحاب المظلمة أو المشكلة حكموك فيها فعليك أن تحكم بين الناس بالعدل .

إذن .. فلابد أن تتمثل بمنهج الله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ وذلك يكون فى أى أمر من الأمور حتى ولو كان الأمر يتعلق بحق من حقوق التكريم والموهبة ، وليس من الضرورى أن يكون الحكم بالعدل فى الأمور المادية، فها هو ذا الإمام على رضى الله تعالى عنه يرى غلامين يحتكمان إلى ابنه الحسن ليحكم بينهما فى أمر هو: أى الخطين أجمل من الآخر ، خط الأول أجمل أم خط الثانى ؟ وهذا أمر قد ينظر الناس إليه على أنه أمر لا قيمة له ، فما الذى يستفيده واحد منهما بإعلان

تفوقه على الآخر في كتابة الخط؟ لكن الإمام علياً رضي الله تعالى عنه رأى في هذه المسألة أمرا مهما، لأنها شغلت الطفلين ، وصار كلٌ واحد منهما يطلب معرفة ما يميزه عن الآخر في كتابة الخط فقال الإمام على لابنه الحسن رضى الله تعالى عنه : يا بنى انظر كيف تقضى في هذا الحكم ، والله تعالى سائلك عنه يوم القيامة.

هذه الصورة تعطينا ضرورة تحرى العدالة حتى في أبسط الامور.

وفى العصر الحديث نرى أنه قد وضعت قواعد محكمة للحكام الذين يقفون قضاة حتى ولو فى المباريات الرياضية المختلفة سواء كرة القدم أو الملاكمة أو غيرها فلكل لعبة قوانين يترتب عليها قياس المهارات المختلفة بين البشر ، ومادام الواحد منا قد قبل أن يكون قاضيا حتى ولو كان فى اللعب فعليه أن يعرف كيف يحكم بالعدل ، ولذلك نحن نرى غضب المتفرجين إذا تغاضى الحكم عن ضربة جزاء صحيحة لصالح فرقة من الفرق، ونتعجب عندما نرى أن المجتمع يصمت عند حدوث خلل فى الأمور الجادة فى الحياة ،ففى اللعب نتمسك بقوانين الجد ، ولكن نحن تركنا الجد بعد أن جردناه من قانون خالقه جل وعلا ، فلو اعتنينا بالجد كاعتنائنا باللعب لصارت أمورنا إلى خير عميم.

إذن .. فالعدل هو حق فى ذمة الغير للغير ، ونحن أمناء عليه وعلينا أن نتحرى الصواب فيه قدر الاستطاعة لقول الله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾

[النساء: ٥٨]

وقوله تعالى ﴿ نِعِمَّا ﴾ هي أنه لا يوجد أفضل من هذه العظة فهى نعمة تستقيم بها حركة الحياة ، وهى نعمة أداء الأمانة والحكم بالعدل بين الناس ، فإذا أدى الناس الأمانة فلا نزاع ، ولا خلاف ، وإذا قاموا بالحكم وظهر أنه خلاف العدل، فالعدل ينهيه، وإذا كان فى المجتمع عدل يحرس حقوق الناس عند الناس فلن يجرؤ ظالم على الظلم .

فالدقة فى العدل تورث ميزة الأمانة إن غفل الناس عنها ، فالذى يغرى الناس بالظلم هو أن بعض الأحكام الدنيوية لا تأتى بالعدل ، فيقال : إن فلانا كان له سابقة وفعل مثلها ولم ينتبه أحد ، وبذلك يتم الإغراء بالظلم .. لكن لو أننا فى كل صغيرة وكبيرة وجدنا الحكم يردع الظالم ويرد الحق لصاحبه لانتشر العدل والأمانة، فذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ﴾ وقد سميت هذه المسألة عظة ، والوعظ هو ترقيق القلب للميل إلى الحكم، لأن الله فى أمره ونهيه لاحاجة له فى أن يفعل الناس أو لا يفعلوا ولكنها مصلحة البشر مع البشر .

ومعلوم أن أحسن ألوان الأمر ما لايعود على الآمر بفائدة ؛ لأن في عودة الفائدة على الآمر قد يشكك في الأمر ، وقد يوجد إنسان يأمر ولا يكون لأمره منفعة لنفسه ، ولكنه لا يكون واسع العلم ، ولا واسع الحكمة ، لكن الحق سبحانه وتعالى ليس له مصلحة في الأمر ، وهو سبحانه واسع العلم والحكمة، لذلك فالعظة منه هي العظة العظمى وهو سبحانه لا ينتفع بأمره.

إن قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ أي: من نعم ما يعظكم به الله هو أن تؤدي الأمانات إلى أهلها وأن تحكموا بين الناس بالعدل. وهنا نجد ملحظًا في الأداء البياني في القرآن الكريم فقول الحق : ﴿أَن تُؤَدُّوا﴾ هو أمر للجماعة ، وهذا يعني أن كل واحد من الجماعة المسلمة مطالب بأن يؤدي هذا الحكم أولا ، وليس الأمر متوقفا عند ذلك الحد ولكن المهمة تتعدى إلى الآخرين ، فالمهمة لا تقتصر على حفظ حقوق الجماعة المؤمنة فقط ولكن الجماعة المؤمنة مكلفة بأن تصون الحقوق بين الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم فالحق سبحانه قال: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء:٥٨] فهذا يقتضي حماية حتى لمن لا يؤمن بدين الإسلام ، ولا توجد حماية لمن لا يؤمن بدين الإسلام أكثر من هذا ، إنه سبحانه يريد منا أن نؤدي الأمانة إلى كل الناس سواء كانوا مؤمنين أم غير مؤمنين .

إن كلمة ﴿النَّاسِ﴾ فى أمر الحق سبحانه وتعالى تدل على عدالة الأمر من الله تعالى وهو رب الناس، كل الناس مؤمنهم وكافرهم، فمادام الله هو الذى استدعى الإنسان إلى الدنيا ومنهم المؤمن والكافر فلا أحد يخرج عن نطاق الربوبية لله ، إنه سبحانه تكفل برزق الجميع ، ولذلك أمر الله الكون أن يعطى من أخذ بالأسباب أن يصل إلى الغاية بالمسببات سواء كان مؤمنا أم كان كافرا . . إنه عطاء الربوبية .

الله سبحانه وتعالى لم يسخر الكون للمؤمن فقط وإنما سخره للمؤمن والكافر ، ولذلك طلب الحق منا أن نعدل بين المؤمن والكافر ولذلك تكون الأمانة فيه مطلوبة للمؤمن والكافر ، وهى مطلوبة للبار والفاجر ، كذلك صلة الرحم مطلوبة للبار والفاجر وذلك يدل على سعة رحمة الدين، ولذلك يترك الحق سبحانه وتعالى بعض الأقضية لتنشأ فى عهد رسول الله ﷺ فتأتى أشياء لتبين لنا بالتطبيق أن هناك فرقا بين أن يكون الأمر نظريا،ولكنه سبحانه يريد الأمر مطبقا عملياً .

والله سبحانه وتعالى خلق الخلق جميعا ويعرف عواطفهم ، وأن هذه العواطف عند المؤمنين فى بعض الأحيان قد تحابى المؤمن على حساب غيره ، لذلك يشاء الله سبحانه وتعالى أن يجعل فى تاريخ محمد ﷺ أشياء تحدث منه هو ثم ينزل الله التشريع على رسوله ﷺ ، ويكون رسول الله ﷺ أول المكلفين به ليدلنا على

أن التشريع في المسألة الإنسانية العامة تشريع لا يخص المؤمنين فقط ولكن المؤمنين والكافرين ويكون ذلك إما دافعًا لهم على الدخول فى هذا الدين ، وإما حسرة في نفوسهم لما يروا ما يتمتع به المسلمون من سمو ايمانى وعدالة وانتصار للحق ، ولكن لو ظلم المسلمون، لقال الكافرون إن المسلمين ظلمونا ولوجدوا فى ذلك مبررًا للكفر .

وتروى كتب الحديث والتفسير قصة طعمة بن أبيريق الذى سرق درعا من زيد بن رفاعة عم قتادة بن النعمان وكلاهما مسلم والدرع كما نعرف هو اللباس الذى يحمى من طعنة العدو، ووضع طعمة الدرع المسروقة فى جوال كان به دقيق ، وغفل طعمة عن وجود بعض من آثار الدقيق بين أنسجة الجوال فلما حمل طعمة الدرع فى الجوال تناثر الدقيق ، وترك علامات فى الطريق وهو يسير من بيت النعمان إلى بيته ، وعندما وصل طعمة إلى بيته جاءه هاجس هو أن الناس قد تتنبه إلى وجود الدرع عنده فذهب بالدرع داخل الجوال إلى بيت يهودى هو زيد السمين فترك الدرع عنده ، فلما فطن قتادة بن النعمان إلى ضياع الدرع خرج معلنا سرقة هذا الدرع، وسار هو وبعض من الصحابة ليتتبعوا الأثر فوجدوه يقودهم إلى بيت طعمة بن أبيريق فقال طعمة : أنا لم أسرق .

وتتبعوا الأثر ثانية فوجدوا الدرع عند زيد بن السمين اليهودى ، ولما رفع الأمر إلى رسول الله ﷺ كان طعمة بن أبيريق من قبيلة بنى ظفر ، وجاء أعوان القبيلة إلى رسول الله ﷺ فذكروا للرسول ﷺ تفاصيلها وقالوا : لو أنصفنا زيد بن السمين فإنه سنتم مؤاخذة طعمة بن أبيريق وهذه سبة لنا وللمسلمين وسمع رسول الله ﷺ كلامهم وهو أحرص الناس على ألا توجد سبة للمسلمين، ولا أن يوجد بينهم لص، وسكت ﷺ حتى يأتيه الوحى من ربه فى هذه القضية وإذا بالأمين جبريل يتزل بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧)** ﴾(١) [النساء]

---

(١) رواه الترمذى [٣٠٣٦] وابن جرير الطبرى فى التفسير انظر تفسير الطبرى بتحقيق الشيخ العلامة أحمد شاكر - رحمه الله - الجزء ٩ ط دار المعارف المصرية ص ١٧٧ وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٤٣٢] .
ولصاحب ظلال القرآن تعليق على هذه القصة جدير بالاهتمام والمراجعة .
وأيضا للدكتور محمد جميل غازى مقالة قيمة جداً فى كتابه مفردات القرآن الجزء الثانى عندما تحدث عن المنافقين .

إذن . . فالحق سبحانه أخبر رسوله ﷺ أن صاحب الحق أولى ولو كان غير مسلم ، وقال له : استغفر الله إن كان جال بخاطرك أن ترفع رأس مسلم خان على يهودى لم يخن .

إن استحياء بنى ظفر من فضيحة طعمة بن أبيرق بين الناس لا يجب أن يلهيهم عن الفضيحة الأكبر وهى الفضيحة عند الله فلا براءة لطعمة عند الله إذ يقول الحق سبحانه : ﴿ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [النساء:١٠٩] .

إذن . . فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء:٥٨] هذا القول يقتضى أن يكون الحكم والأمانة أمرا شائعا بين كل الناس فلا يخص المؤمنين فقط ولكن يخص المؤمنين والكافرين طالما ارتضوا أن يعيشوا فى دولة الاسلام.

ولذلك أمر رسول الله ﷺ من يقضى بين الناس أن يسوى بين الخصمين فلا ينظر لواحد دون الآخر ، أى: لا يكرم واحدا دون الآخر ، وذلك حتى يشعر الطرفان بالمساواة أمام القاضى فلا ينظر القاضى إلى طرف بحنان وعطف ، وينظر إلى الآخر بجفاء . . إن النظرة يجب أن تكون متساوية، ولذا نجد الإمام عليا رضى الله تعالى عنه قد رد القاضى لأنه قال له : يا أبا الحسن فقال على رضى الله تعالى عنه : أنت لا تصلح لأن تقضى بينى وبين

خصمى لأنك كنيتنى دون أن تكنيه، فالتكنية دليل المودة والتعظيم، ورسول الله ﷺ حين يقول للقاضى: «سو بينهم فى لحظك ولفظك»(١) وذلك حتى يعرف القاضى أن فوقه إلهًا بصيرا بالعباد.

❑❑❑

---

(١) عن أم سلمة رضى الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله ﷺ «من ابتُلىَ بالقضاء بين المسلمين فليعدل بينهم في لحظه وإشارته ومقعده ومجلسه» رواه الدارقطنى والطبرانى فى الكبير والبيهقى، قال السيوطى فى الجامع الصغير إسناده ضعيف وقال شارحه المناوى فى فيض القدير قال الذهبى فى المهذب إسناده واهٍ.
وفى رواية أخرى «من ابتُلىَ بالقضاء بين المسلمين فلا يرفع صوته على أحد الخصمين مالا يرفع على الآخر» وهذا أشد ضعفاً من الذى قبله.
انظر الجامع الصغير وشرحه فيض القدير ط دار المعرفة جـ ٦ ص ٢١ - ١٢ وانظر أيضاً نهاية الأرب فى فنون الادب للنويرى جـ ٦ص ٢٦٣ ط الهيئة العامة للكتاب.

الأمانة

الأمانة هى ما يكون للغير عندك من حقوق وأنت أمين عليها، فمن الناس من يقول : لقد أودعت عند فلان أمانة ، وهذه الأمانة لو كانت بإيصال فهى ليست أمانة ذلك أن الإيصال دليل، ولو كانت هذه الوديعة أمام شهود فليست أمانة .

الأمانة إذن هى أن يودع إنسان إنسانًا آخر شيئا ، وأمانته هى حين يطلبها صاحبها أن يؤديها أو ينكرها .

إذن. . فالأمانة فى تحقيقها شىء يقبله الإنسان عمن يأتمنه ولا حجة على الإنسان إلا ذمة الإنسان فإن شاء أقر، وإن شاء أنكر.

ومن الأمانة أن الإنسان خلق مختارا فإن شاء قال : لا إله إلا الله ، وإن شاء - والعياذ بالله - لقال غير ذلك مثل الذين كفروا وقالوا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [المائدة: ٧٣] .

وعلى ذلك فالأمانة التى أعطاها لنا الله هى أمانة الاختيار فقد قال سبحانه : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠]

إنه سبحانه قد يسر لنا السبيل للاختيار ، لقد خلق الحق سبحانه وتعالى اللسان للإنسان وهو صالح لأن يقول : لا إله إلا الله ، وصالح أن يقول مثل الكافر: الله ثالث ثلاثة تعالى الله عن ذلك

علواً كبيراً ، والحق خلق للإنسان اليد فإن شاء ضرب باليد إنسانا آخر ، وإن شاء أن يزيل بها حجراً من الطريق، أو يربت بها على كتف يتيم ، والحق خلق للإنسان الساقين إن شاء ذهب بهما إلى المسجد ، وإن شاء ذهب بهما إلى أى مكان يعصي الله فيه. وهذه هي الأمانة التى عرضت على السموات والأرض فأبين أن يحملنها، وحملها الإنسان.



جهالة الإنسان

حين خلق الله الإنسان أخذ عليه العهد والميثاق بأنه ربه وخالقه وعليه أن يعبده وحده ولايشرك به أحدًا وأقر الإنسان بذلك ، ثم أعطاه الله تعالى أمانة أن يحافظ على هذا العهد طواعية وحباً وإن شاء نكص عنه ، واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]

أودع عند الإنسان أمانة ، فإن شاء الإنسان فعل هذا أو فعل ذا ، لذلك قال الحق سبحانه وتعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] .

كل الكائنات قد رفضت أن تحمل الأمانة ، لأن الكائنات لم تضمن لنفسها حسن الاختيار وطلبت الكائنات أن يخلقها الله مسخرة بلا إرادة اختيار ، ولذلك نجد الكونيات العليا كالماء والأرض والشمس ليس لها خيار في شيء فهي مسخرة ، ولم ترض أن تكون مختارة .

وثمة فارق بين أن يقول كائن أتحمل الأمانة وبين أن يقول آخر أنا سأنفذ الأمانة كما سيريد الله ، ومادام الكائن سينفذها كما يريد الله فلماذا لا يفعل الإنسان ما أراده الله بمنهجه؟ الإنسان لم يأخذ

أمانة الاختيار إلا طمعا في أن يكون حرا في أن يفعل ذلك أو لا يفعل ، ولو كان الإنسان كما يقول قد أخذ الاختيار لينفذه وفق مرادات الله ، فلماذا لم يقل يارب أنا لا أريد أن أكون مختارا واجعلني مقهوراً . . لذلك لابد أن يكون للإنسان في الاختيار مأرب آخر ، إن السماء والأرض والجبال وكل الكونيات لم تقبل تحمل الأمانة خشية عدم القيام بحقها ، ولنتنبه جيدا إلى أن هناك فارقا بين الأمر ساعة أن يتحمله الإنسان ، والأمر ساعة أن يؤديه، فعندما يقول لك قائل : أنا معي مائة جنيه واحفظها لي عندك حتى لا أبددها ، فالإنسان المتلقي لهذه الأمانة لا يتهمه أحد بذمته وهو عندما قبل المائة جنيه كأمانة فهو في نيته أن يحتفظ له بها ويؤديها في أي وقت يطلبها منه ، لقد ضبط الإنسان نفسه ساعة تحمل الأمانة ، ولكن هل يضبط الإنسان نفسه عندما يطلب منه أن يؤدي الأمانة قد تكون الدنيا ضاقت عليه وغلبته الظروف فأضاع الأمانة في مستلزماته أو مستلزمات بيته .

إذن . . فهناك فرق بين أن يقدر الإنسان على نفسه وقت التحمل، ولكن لا يقدر على نفسه وقت الأداء لذلك فالكونيات كالجبال والسماء والشمس وغيرها قالوا قد نحمل الأمانة ولكن قد لا نقدر عليها وقت الأداء لذا : ﴿ **فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً** ﴾ [الأحزاب:٧٢] ظلم نفسه لأنه أدخلها في متاهة التحمل ، وجهول بما يكون عليه عند الأداء .

❑❑❑

الأمانة التى أعطاها الله لخلقه

الأمانة كما قلنا هى حق فى ذمة إنسان لإنسان آخر عليه أن يكون مستعداً لأداء الحق ساعة الطلب، وحين يعطى إنسان إنساناً شيئاً يصير الآخذ مؤتمناً فإن شاء أدى، وإن شاء لم يؤد. لكن هناك أمانات أخرى لم يعطها إنسان لإنسان إنما أعطاها رب الناس لكل الناس ، من هذه الأمانة التى هى عطاء من الله .. العلم الذى أعطاه الله للناس فهو أمانة فلا تقل إن ما تعلمه للآخرين هو دين عليهم إنما هو أمانة من الله عليك أن تؤديها لخلقه الذين لا يعلمون، كذلك الحلم أمانة، والشجاعة أمانة، وكل صفات الخير التى فيك هى أمانة وعليك أن تؤدى ضريبتها لخلق الله تعالى .

والأمانة فى المال قد تكون واضحة ، أما فى بقية الأشياء فعلى الإنسان أن يعرف أنه مؤتمن عليها ؛ لأن صاحبها هو الله وهو خالقها فيك . . لقد أمّن الله الإنسان على المواهب المختلفة حتى يؤديها للغير ، فينتفع المجتمع الإنسانى كله .

إذن . . فليس من الضرورى أن تكون الأمانة هى من صاحب مساوٍ لك لتردها إليه ، ولكن الأمانة هى ما تصير مؤتمنا عليه من خالق أو من مخلوق .

إذن . . بهذا المعنى الأمانة أمرها واضح . فالألوهية حق لله وحده ، فعليك أن توحده ولا تشرك به أحداً وهذه أمانة عندك، والتزامك أمر النبى ﷺ أمانة ، وغيرتك على دينك ومجتمعك

أمانة وفيما حباك الله به من المواهب أمانة ، فكل إنسان أمين على موهبته فليؤدها إلى غيره . وليعطِ أثرها لمن لا توجد عنده هذه الموهبة ، لقد أعطى الله لهذا قوة فى العضل ، ولثانٍ قوة فى الفكر ، ولثالث قوة فى الحلم ولرابع قوة فى العلم وغير ذلك من المواهب ، كل هذه أمانات أودعها الله فى خلقه ليكون أداؤها محققا للتكامل بين الخلق، فحين يؤدى كل إنسان أمانته لغيره من البشر يصبح عند كل إنسان مواهب غيره من البشر .

وقمة الأمانة أن يعبد الإنسان خالقه ولا يشرك به أحداً، والأمانة فى التكاليف التى كلفك الله بها فيجب على كل إنسان أن يؤدى ما كلفه الله تعالى به . . وليعلم الإنسان أن هذه التكاليف أمانة للغير عنده ، فحين يكلفك الله بألا تسرق فهو سبحانه كلف الغير كله ألا يسرقوك .

إذن . . فكل أمانة عند الغير هى أمانة عندك فإن أديت مطلوبات الأمانة عندك أدى المجتمع الذى يحيط بك الأمانة التى عنده لك .

والأمانة إذا ضاعت كان ولابد من العدل ، لأن الإنسان إذا ما عاش فى مجتمع يؤدى كل واحد فيه ما للغير عنده لما احتجنا إلى التقاضى، لأن التقاضى إنما ينشأ من خصومة وخلافات ، فالتقاضى سببه أن واحدا أنكر حق غيره ،فيذهب الاثنان إلى المحكمة لتحكم بينهما بالعدل .

إذن . . فإذا أدى كل واحد منا ما فى ذمته من حق للغير لما وجد تقاضٍ، ولما وجدت خصومة ؛ ولذلك لا توجد فى مثل تلك الحالة ضرورة للذهاب إلى المحاكم للعدل بين الناس .

استقبال قضاء الله

الحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الضر كما هو خالق النفع ، والضر يلفت الإنسان إلى نعم الله تعالى فى الدنيا فإذا ما رضى الإنسان وصبر فإن الله يرفع عنه الضر ، فالضر لا يستمر على إنسان إلا إذا كان غير راضٍ بقدر الله .

والحق سبحانه وتعالى لا يرفع قضاء قضاه فى خلقه إلا بعد أن يرضى به الخلق ، فالذي لا يقبل بقضاء الله فى المصائب مثلاً تستمر معه المصائب، أما الذى يريد أن يرفع الله عنه القضاء فليقل: رضيت بقضاء الله تعالى ، ويحمد الله على كل ما أصابه .

والحق سبحانه يعطينا نماذج على مثل هذا الأمر فها هو ذا الخليل إبراهيم عليه السلام يتلقى الأمر بذبح ابنه الوحيد اسماعيل عليه السلام ، وهذا الأمر قد يراه غير المؤمن بقضاء الله شديد القسوة، وليس هذا فقط ، بل على إبراهيم أن يذبح ابنه بنفسه .. وهذا ارتقاء فى الابتلاء ، ولم يلتمس إبراهيم عذرا ليهرب من ابتلاء الله له ، ولم يقل إنها مجرد رؤيا وليست وحيا فقد جاء الأمر فى رؤية أراها الله لابراهيم عليه السلام .

ولنتأمل عظمة الرضا في استقبال أوامر الله فيلهمه الحق أن يشرك ابنه إسماعيل في نيل ثواب الرضا فيقول له كما قص علينا القرآن الكريم : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] .

لقد بلغ إسماعيل ذروة السعي في مطالب الحياة مع أبيه ، وجاء الأمر في المنام لإبراهيم بأن يذبح ابنه. ، وامتلأ قلب إسماعيل بالرضا بقضاء الله ، ولم يقاوم ، ولم يدخل في معركة جدلية بل قال : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ لقد أخذ اسماعيل عليه السلام أمر الله بقبول ورضا ولذلك يقول الحق سبحانه عنهما معا : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات] .

لقد اشترك الاثنان في قبول قضاء الله برضا ، وأسلم كل منهما للأمر . . أسلم إبراهيم كفاعل . . وأسلم إسماعيل كمفعول به ، ورأى الله تعالى صدق كل منهما في استقبال أمر الله ، وهنا نادى الحق خليله إبراهيم عليه السلام لقد استجبت أنت وإسماعيل إلى قضائي وحسبكما هذا الامتثال ، ولذلك يجيء إليك وإلى ابنك التخفيف.

إذن .. فنحن البشر نطيل على أنفسنا أمد القضاء بعدم قبولنا له، لكن لو سقط على إنسان أمر بدون أن يكون له سبب فيه واستقبله من مجريه عليه وهو ربه بمقام الرضا فإن الحق سبحانه وتعالى يرفع عنه القضاء ، فإذا رأيت إنسانا طال عليه أمد القضاء فاعلم أنه فاقد الرضا .

❑❑❑

الإنفاق ابتغاء مرضاة الله

يقول الله تعالى : ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير ﴾ [البقرة : ٢٦٥] . . .

إن ابتغاء مرضاة الله في الإنفاق يعنى خروج الرياء من دائرة الإنفاق .

إن الإنفاق يكون أولا إنفاقًا فى سبيل الله ، ويكون ذلك باعتقاد النفس الجازم بأن الله سبحانه هو الذى وهب المؤمن ماله ودمه ، ولذا فكل شيء يهون فى سبيل مرضاته .

والجنة تطلق فى اللغة : على المكان الذى يوجد به زرع كثيف أخضر يستر من يدخله ، ومنها : «جن» أى : ستر فمن يدخل هذه الجنة يكون مستورا .

الحق سبحانه يريد أن يضرب لنا المثل الذى يوضح الصنف الثانى من المنفقين فى سبيل الله ابتغاء مرضاته ، وتثبيتا من أنفسهم الإيمانية ضد الأنفس الشهوانية ، فيكون الفرد منهم كمن دخل جنة كثيفة الزرع ، هذه الجنة توجد فى ربوة عالية محاطة بأمكنة منخفضة عنها فماذا يفعل المطر بهذه الجنة التى توجد على هذه الربوة ؟ .

الله سبحانه أخبرنا بما يحدث لمثل هذه الجنة قبل أن يتقدم العلم الحديث ، ويكشف أسرار المياه الجوفية وفائدتها للزراعة، وهو أن الجنة التى فى ربوة عالية لا يوجد بها مياه جوفية ؛ لأن المياه الجوفية إن وجدت فإنها تذهب إلى جذور النباتات الشعرية فتفسدها بالعطن ، فلا تستطيع هذه الجذور أن تمتص الغذاء اللازم للنبات فيشحب النبات بالاصفرار ويموت بعد ذلك .

أما الجنة التى بربوة عالية، فالمياه التى تنزل عليها من المطر لها مصارف من جميع الجهات المنخفضة التى حولها، وكأنها ترتوى بأحدث ما توصل إليه العلم من وسائل الرى ، إنها تأخذ المياه من أعلى أى من المطر ، فتنزل المياه على الأوراق فتؤدى وظيفة أولى وهى غسيل أوراق النبات ، وهذه الأوراق هى مثل رئة الإنسان مهمتها التنفس ، فإذا ما نزل عليها المطر فهو يغسل هذه الأوراق بما يجعلها تؤدى دورها فيما نسميه نحن «بالتمثيل الكلورفيلى» ، وبعد ذلك تنساب المياه إلى الجذور لتذيب العناصر اللازمة فى التربة لغذاء النبات ، وتأخذ الجذور حاجتها من الغذاء المذاب فى الماء ، وينزل الماء الزائد عن ذلك إلى المصارف المنخفضة، وهذا أحدث اكتشاف لرى الأراضى الزراعية ، فالمحصول يتضاعف إنتاجه عندما يروى بقدر .

إذن .. فالحق سبحانه وتعالى يخبرنا أن من ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم هم مثل هذه الجنة التى تروى بأسلوب ربانى ، فإذا نزل عليها المطر الغزير أخذت منه حاجتها ويتصرف باقى المطر عنها ، وإن لم يصبها مطر غزير فطل ، والطل، وهو الرذاذ القليل يكفيها، لتؤتى ضعفين من إنتاجها، وإذا كان الضعف هو ما يساوى الشيء مرتين، فالضعفان يساويان الشيء أربع مرات ، ولكن الحق سبحانه يريد أن يوضح أن الذى ينفق ماله ابتغاء وجه الله، هو غير الذى ينفق ماله رئاء الناس ويريد الحق سبحانه أن يضرب لنا مثلا يريد الإيضاح لحالة من ينفق ماله رئاء الناس فيقول سبحانه : ﴿**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾ [البقرة :٢٦٦] .

الحق سبحانه وتعالى يشركنا فى الصورة كأنه يريد أن يأخذ منا الشهادة الواضحة، فهل يود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار، وفيها من كل الثمرات ؟ إن الجنة بهذه الصفة فيها خير كثير ، لكن صاحبها يصيبه الكبر ولم تعد فيه صحة وفتوة الشباب .. إنه محاط بالخير وهو أحوج ما يكون إلى ذلك الخير، لأنه أصبح فى الكبر وليس له طاقة يعمل بها .

وهكذا تكون نفسه معلقة بعطاء هذه الجنة لا لنفسه فقط ، ولكن لذريته الضعفاء .

هذه قمة التصوير للاحتياج إلى الخير لا للنفس فقط ولكن للأبناء الضعفاء ، إننا أمام رجل محاط بثلاثة ظروف :

الظرف الأول : هو الجنة التى فيها من كل الخير .

الظرف الثانى : هو الكبر والضعف والعجز عن العمل .

الظرف الثالث : هو الذرية الضعفاء .

هذه الجنة هاجمها إعصار فيه نار فاحترقت فأىُّ حسرة يكون فيها هذا الرجل ؟ إنها حسرة شديدة ، هكذا تكون حسرة من يفعل الخير رئاء الناس .

والإعصار كما نعرف هو الريح الشديدة المصحوبة برعد وبرق وأحيانًا يكون فيه نار وذلك حين تكون الشحنات الكهربائية ناتجة من تصادم السحب أو حاملة لقذائف نارية من بركان ثائر . هكذا يكون حال من ينفق ماله رئاء الناس . . ابتداء مطمع وانتهاء يائس .

إذن . . فكل إنسان مؤمن عليه أن يتذكر ساعة أن ينفق هذا الابتداء المثير للطمع وذلك الانتهاء المليء باليأس . . إنها الفاجعة التى يصورها الشاعر بقوله :

فأصبحت من ليلة الغداة كقابض على الماء خانته فــروج الأصابــع

كلما أبرقــــت قومــــًا عطاشًا غمامة فلما رأوها اقشعت وتجلت

□□□


الرذيلة

الحسد

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

الواقع المعاصر أثبت أنه كلما يترقى العلم يمنحنا فكرة ، عن أن الشيء كلما شف أو لطف أصبح دقيقا . أى : يكون أكثر عنفا .

وعلى سبيل المثال : إنسان بنى بيتًا فى حقل متسع فمر عليه صديق له وقال : ألا تعرف أن هنا فى هذا الخلاء المتسع ذئبا ؟! وأوصى الصديق صاحب البيت بأن يبنى نوافذ من حديد ليمنع الذئاب من أن تدخل عليه .

ثم مرّ عليه صديق ثان فقال له : إن حديد شبابيك المنزل متسع ، والثعابين فى هذا الخلاء كثيرة وأوصى صاحب البيت أن يضع ستارة من السلك .

لكن صديقا ثالثا قال لصاحب المنزل : إن النامـوس الفتاك بالملاريا منتشر ، وعليك أن تضع ستائر من السلك أكثر ضيقا من هذه .

إذن . . فإن الشيء كلما لطف عنف ، أى : كلما صغر الشيء فى الحجم كان عنيفا أكثر ، والعنف ليس مرتبطًا بحجم المادة ، إنما من عمق فاعلية المادة وتأثيرها ، وعلوم الطب تكشف كل يوم عن الأمراض الخطيرة الفتاكة ، وتكون هذه الأمراض بسبب أصغر

الميكروبات حجما، كما أن هناك الآن أشعة «الليزر» التى يتم بها إجزاء عمليات جراحية بدون مشرط أو نزول قطرة من الدم ... هذه الأشعة تخترق أدق وأصلب الأشياء .

والحسد أمر مقطوع به رغم أنه ليس من الأمور المادية ، فلماذا تنكر على الحاسد أن بصره قد تصدر عنه أشعة أشف وأخف من أشعة الليزر ؟ .

قد يقول قائل : وما ذنب المفتوك به من الحسد ؟

نقول أيضا : وما ذنب المقتول خطأ برصاصة ؟

إن حساب ذلك بالثواب والعقاب عند الحق العليم .

وقول الحق سبحانه : ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:٥] أى : أن بعض الناس يحسد ، ولذلك عندما يرى الإنسان نعمة الله على إنسان آخر فعليه أن يقرأ سورة الفلق ، وليقل ما شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ولا يحقد على صاحب النعمة . حينئذ تغلق فى قلبه نوافذ الإشعاع الحاسد ، لأن هذه الإشعاعات النافذة لا تخرج إلا فى حالات الحقد والغضب .

إذن . . فالإنسان حين يقول : ما شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإنه يقى نفسه من أن يكون حاسدًا ، ويمنع غيره بقوة الحق سبحانه وتعالى من أن يكون حاسدا له .

إن الحسد والسحر هما من الشرور غير المرئية التى تتساوى مع الشرور المرئية ، وإن كانت أدواتهما غاية فى اللطف والعنف فى آنٍ واحد .

والإنسان الذى يحقد هو إنسان يعانى من تضارب الملكات، حتى إنه يبدو وكأنه يأكل بعضه بعضا . . فالحقد جريمة نفسية لم تتعد الحسد ، ويقال عن الحقد أنه الجريمة التى تسبقها عقوبتها ، وهي عكس أي جريمة أخرى نجد أن عقوبتها تتأخر عنها إلا الحقد، ذلك أن عقوبة الحقد تنال صاحبها من قبل أن يحقد .

الحاقد لا يحقد إلا لأن قلبه ومشاعره تتمزق عندما يرى المحقود عليه في خير ، ولذلك جاء في الأثر «حسبك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك» .



الإسراف

الله سبحانه وتعالى حين يحرم شيئا فمن المؤكد أنه محدود بالنسبة إلى ما أحله سبحانه ، فالمحرم قليل ، وبقية ما لم يحرمه الله هو الكثير واقرأ قول الله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) ﴾ [الأنعام]

إن الحق سبحانه يورد المحرمات وهى أشياء محددة محدودة، أما النعم فهى جليلة عظيمة أكثر من أن تحصى وتعد ، ومن هذا الأمر نعرف سعة رحمانية الحق بالخلق ، لقد خلق سبحانه الكثير من النعم ولم يحرم إلا القليل ، وسبحانه حين حرم ؛ حرم لتبقى كل نعمة فى مجالها فإذا ما جاء إنسان وقال : إن الله قد حرم هذا الشيء لأنه ضار ، نقول له : إن ما تقوله أمر جائز ولكن ليس هذا الضرر سبب الحكم بكل المحرمات فقد يحرم الله سبحانه أمرًا لتأديب قوم ما ، فلو نظرنا نحن إلى واقعنا مثلا فقد

نجد أباً مسئولاً عن تربية أولاده قد يحرم على ولد فيهم لونا من الطعام أو جزءا من مصروف اليد ويكون القصد من ذلك العقوبة.

وكذلك نرى أن بنى إسرائيل استحقوا عقوبة التحريم لأنهم جاءوا من خلف منهج الله وأحلوا لأنفسهم ما حرم الله ، فكأن الحق سبحانه يقول لهم: لقد اجترأتم على ما حرمت فحللتموه ، لذا فأنا أحرم عليكم ما أحللته لكم من قبل ذلك . . لماذا ؟ .

حتى لا يفهم إنسان أنه بتحليله لنفسه ما حرم الله قد أخذ شيئا من وراء الله . . لا . . إن أحدا لا يمكنه أن يغلب الله سبحانه ، فالله سبحانه قد يحرم عليك شيئا كان حلالا، ولهذا فالتحريم إما أن يكون تحريم طبع أو تحريم فطرة .

فنحن نجد الرجل الذى أسرف على نفسه فى تناول محرمات كالخمر مثلا ثم بعد أن أخذت بجسده ذهب إلى الطبيب فقال له إن شربتها ثانية سينتهى كبدك ، ثم يمنعه من أصناف كثيرة من الطعام والشراب فهذا ظلم من الإنسان لنفسه نتج عنه تحريم أشياء عليه ، إن مثل هذا الإنسان قد استحل ما حرم الله فحرم الله عليه بالطبع والتكوين ، والسنة الكونية أموراً كانت حلالاً له .

ورجل آخر أسرف على نفسه فى تناول صنف معين من الطعام كالسكر مثلا فوق ما تدعو إليه الحاجة فكأن سنة الله الكونية تقول له : لقد أخذت أكثر من حاجتك وبسبب ذلك صرت مريضا

فإياك أن تتناول السكريات مرة أخرى ، ويظل المريض بالسكر يشتهى الحلوى ، ويملك القدرة على شرائها ولكنها ممنوعة عليه ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول له : بظلم منك لنفسك حرمت على نفسك ما أحللته لك .

وآخر يملك الثروات والخدم والمزارع الشاسعة ويقوم له الآخرون بطحن الغلال ، ويأمر بأن يصنع له الخبز من أنقى أصناف الدقيق الخالى من الردة ويصنعون الخبز الأبيض ويأكل منه ، بينما الأتباع يصنعون لأنفسهم الخبز من الدقيق الأقل نقاوة فكأن سنة الله الكونية تقول له : أنت ستأكل الخبز المصنوع من الردة لأنك أسرفت على نفسك من أكل الخبز المصنوع من الدقيق الفاخر ، وليأكل رعاياك وعمالك الخبز المصنوع من أفخر ألوان الدقيق ، وكأن الله تعالى يقول له: فبظلم منك حرمنا ما أُحل لك .

إذن . . فالإنسان منا عندما يرى إنسانا آخر حُرِم من نعم الله التى هى حلال فليعلم أن ذلك الإنسان سبق وأن أحل ما حرم الله عليه ، أو ظلم نفسه بالإسراف فى شىء كانت الفطرة والطبع تقتضيان الاعتدال فيه . . إن أحدا منا لا يفلت من رقابة الله ، والتحريم يكون بالتشريع إذا كانت العقوبة من المشرع ، وقد يكون تحريما بالطبع ، وهذا إن كان فى الامر إسراف من النفس ، ولنقرأ دائما قول الله تعالى : ﴿ **فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا** ﴾ [النساء : ١٦٠] .

وكذلك الذى يأخذ مالا بالربا ، إنه يأخذه ليزيد ماله ، هنا نقول له : لماذا تريد المال ؟ أتريده لذات المال أم لهدف آخر ؟ المال رزق ، لكنه رزق غير مباشر ، لأنه يشترى الأشياء التى ينتفع بها الإنسان وهى الرزق المباشر ، نقول : هب أن إنسانا فى صحراء ومعه جبل من الذهب لكن الطعام انقطع عنه ، إن جبل الذهب فى مثل هذه الحالة لا يساوى شيئا بل يصبح رغيف الخبز وكوب الماء أغلى من الذهب .

إذن . . فالمال رزق لكنه غير مباشر يأتى بالرزق المباشر . والذى يزيد ماله بالربا ، هل يريد تلك الزيادة من أجل المتعة ؟ فليعلم أن الله سبحانه يمحق ذلك ويزيل المال فى الكوارث .

إن الإنسان إذا أراد أن يبقى له ما أحل الله إلى أن يأتى أجله فعليه ألا يستبيح أى شىء حرمه الله ، وبذلك يظل مستمتعا بنعم الله عليه .



الظلم

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت :٤٦].

إذن .. فالإنسان هو الذي يظلم نفسه ، ويقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس:٤٤] .

فإياك أيها الإنسان أن تظن أنك حين تظلم أحدا بتدبير السوء له قد كسبت الدنيا ، وهذا غير صحيح ، ولو علم الظالم ماذا أعد الله للمظلوم لضن عليه بظلمه .

وهب أن رجلاً مثلاً له ولدان وجاء ولد منهما وضرب أخاه ، أو خطف منه شيئاً كان معه ثم عرف الأب ذلك .. قلب هذا الأب يكون مع من ؟ قلبه بالطبع يكون مع المظلوم فيحاول أن يرضيه، فإن كان الأخ الظالم قد أخذ منه شيئا يساوى عشرة قروش فإن الأب يعوضه بشيء يساوى مائة قرش ، هنا نجد الابن الظالم يعيش فى حسرة ، لأنه لو علم مسبقا أن والده سيكرم أخاه المظلوم لما ظلم أخاه أبدا .

إن الظلم ظلمات يوم القيامة ، ومن المفارقات التى تروى مفارقة تقول : إن كنت ولابد مغتابا فاغتب أبويك ، ويقول السامع لذلك وكيف أغتاب أبى وأمى ؟!

يقول أصحاب المفارقة : إن والديك أولى بحسناتك فبدلا من أن تعطى حسناتك لعدوك ابحث عمن تحبهم وأعطهم حسناتك .

إن صاحب المفارقة هذه يريد أن يكره المغتاب فيها ، وحيثية هذه المفارقة هي: لا تكن أيها المغتاب أحمق ، لأنك لا تغتاب إلا عن عداوة ، وكيف تعطي حسناتك التى هى أثمن نتيجة لأعمالك لعدوك ؟!.

ويروى أن الحسن البصرى بلغه أن أحداً قد اغتابه فأرسل الحسن شخصا إلى المغتاب ومعه طبق من البلح الرطب وقال لهذا الشخص : اذهب بهذا الطبق إلى فلان وقل له : بَلَغ الحسن أنك اغتبته بالأمس ، وهذا يعنى أنك أهديت له حسناتك، وحسناتك بلا شك أثمن من هذا الرطب .

إن الظلم كالجور .. وهو نوع من الاعتداء أو القسر أو القهر أو انتقاص القدر أو القيمة ، ويقابل الظلم الإنصاف كما يقابل الجور العَدل .

الظلم إذن .. انتقاص من حق الناس ، فما بالنا عندما ينتقص الإنسان من حق نفسه ، أى : أن يظلم نفسه ، وظلم النفس هو أبشع ألوان الظلم فالنفس كرمها الله وخلقها ، فقد كانت تستحق من الإنسان أن يرعاها وأن يحقق مراد الله منها ، وأن يمنع عنها إلحاح اشتهاء ما يغضب الله. يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) ﴾ [آل عمران] .

إن ظلم النفس يعني : أن يبيع الإنسان دينه بدنيا غيره ، فهو لا يحقق لنفسه أي نفع آجل أو عاجل .

وقديماً قالوا : شر الناس من باع دينه بدنياه ، وشر هؤلاء الذين باعوا دينهم بدنيا غيرهم .

لهؤلاء وأولئك كتب الله لهم الطريق إلى النجاة ؛ وذلك بأن يذكروا الله، وأن يستغفروا، وألا يعودوا إلى مثل تلك الفواحش، أو ظلم النفس حتى يغفر الله لهم ، ويرزقهم الجنة ، ذلك أن الله لايظلم أحدا ولكن الناس يظلمون أنفسهم ، لأن الناس تنقص قدرها من النافع الباقي ويقعون أسرى للذى يزول .



السخرية والاستهزاء بالناس

إن الاستهزاء بالناس أو السخرية من عيوب أحد الناس هو دليل على عدم تمكن الإيمان من النفس ذلك بأن الله خالق لكل البشر، فهذا المخلوق الذى به عيب خلقى ، ليس له دخل فى ذلك العيب، وإنما هى مشيئة الله الذى خلق هذا المخلوق على تلك الصورة لحكمة اقتضت ذلك لا يعلمها إلا الله سبحانه . وعندما يسخر إنسان ما من عيب إنسان آخر فمعنى ذلك أن الساخر إنما يسخر من صنعة الله ، والسخرية من هذا النوع هى عدم إيمانية النفس لمخلوقية كل البشر من إله واحد .

إذن . . فالذى يبحث عن عيوب البشر فهو يبحث عن عيوب أرادها الله سبحانه وتعالى لحكمة فى كونه . وما دامت لحكمة فهى ليست عيوبًا .

فمثلاً حين يعيب إنسان على صناعة كرسى أو مائدة فهذا ليس تعديلا على الكرسي أو المائدة ولكنه تعديل على من قام بصناعة هذا الكرسي أو تلك المائدة .

لذا فكل من يسخر من إنسان به عيب ، فليعلم أن الإنسان لا حيلة له فى صنع نفسه .

إذن . . فالسخرية هنا تكون من خلق الله، وهذا نوع من الغباء، لأن الذى يسخر من عيب إنسان فإنه لم يقدر الخصال الحميدة

التى يتفضل بها الله على هذا الإنسان الذى سخر منه ، لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[الحجرات: ١١]

إن الحق سبحانه يأمر كل المؤمنين بألا يسخر أحدٌ من أحد ، ذلك لأن فى كل إنسان من الخصال الحميدة التى تعمى عنها بصيرة الساخر ، وقد يكون فى الساخر نفسه بعض الخصال السيئة التى لا يجب أحد أن يسخر منها .

إن فى السخرية خروجا عن مقتضى الإيمان الكامل، وظلما للغير وللنفس، ويجب أن نعرف أن الله قد وزع علينا الصفات والمواهب المختلفة بدرجات متفاوتة، ولكن أخيرا يتساوى مجموع صفات كل إنسان مع صفات أى إنسان .

❑❑❑

الفساد

يأتى الفساد من أن ينقل الإنسان سلوكا من مجال افعل إلى مجال لا تفعل ، وأن ينقل الإنسان سلوكا من مجال لا تفعل إلى مجال افعل .

مثال ذلك : أن المنهج الإلهى يقتضى أن يشهد الإنسان بأن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فالإنسان الذى يعلن ذلك هو الذى عليه أن يتقبل تكليف الله، والإنسان الذي ينكر ذلك هو الذى ينقل سلوكا من مجال افعل إلى مجال لا تفعل، ذلك أن قول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، هذا القول هو تجديد للعهد الذى بين العبد وبين خالقه سبحانه، وبالتالى فهو التزام كامل بمنهج الله تعالى.

وكذلك الإنسان الذى يعرف أن الصلاة ركن أساسى تقوم عليه حياة الإنسان فى الإيمان ، فهذا الإنسان إن أخلص فى أداء الصلوات الخمس كان ذلك عاصمًا له من زلات الشيطان أو اتباع الهوى وكذلك الصيام والزكاة ، وأيضا عندما يأمر الحق سبحانه وتعالى عبده بألا يشرب الخمر مثلا عندئذ فالعبد الذى يطبق منهج الله هو الذى ينتهى على الفور من شرب الخمر ، والعبد الذى يظل يشرب الخمر هو من خالف منهج الله تعالى فى افعل ولا تفعل .

إذن . . فالإفساد في الأرض هو ممن آثر هواه على منهج الله . مثل الذى يأكل أموال الناس بالباطل،ويكثر من اغتصاب عرق وتعب الآخرين فهذا إنسان لا يطبق منهج الله وهو مفسد فى الأرض .

لذا يجب أن نطبق هذه القاعدة فى سلوك كل إنسان وهى : أن من يطبق منهج الله فقد أصلح نفسه، وانسجم مع أوامر خالقه ، ونال رضا الله بعد أن قام بمسئولية الاختيار .وأداها كما يجب أن تؤدى .

أما من لا يطبق منهج الله فقد أفسد نفسه، وأفسد سلوكه.

ذلك لأنه وقف من منهج الإيمان موقف السلب ، فلم ينفذ أمر الله، وقد أخلّ بعهده مع الله .

وهكذا نرى أن خروج الإنسان بفعل ما من مجال إلى مجال فى تشريعات الله تنطبق عليه العناصر الثلاثة التى حددها الله فى وصفه للفاسقين أو أحدها، وهى :

- نقض للعهد .
- قطع لما أمر الله به أن يوصل .
- إفساد فى الكون .

إن المجتمع عندما لا ينتظم الأفراد فيه بمنهج الله تعالى تجده مضطربا ؛ لأن كل إنسان سيفعل ما يحلو له ، فسنجد التصادم

فى سلوك البشر ورغباتهم ، وسنجد النقض للعهد ، والقطع لما أمر الله به أن يوصل والإفساد فى الأرض .

إن الفساد قبح لجمال الوجود ، ذلك أن المفسد فى الأرض هو الذي يخرج الشيء عن حد اعتداله لمهمته ، ولنا أن نعرف أن فعل المفسد فى الأرض يشكل قبحا فى الوجود ، وينطبق الإفساد فى الأرض على المستغل لحاجات البشر فمثل الذى يخفى سلعة لها هامش ربح محدود وينكرها ليزيد من ارتفاع الأسعار بما فوق طاقة البشر ، وكذلك المستغل لحاجات البشر فى الإسكان فيأخذ أموال الناس ليبنى بها ولا يعطيهم حقوقهم ويستغل احتياجهم إليه فيقوم بسلب أموالهم . هذا إفساد فى الأرض ، لأنه قهر من إنسان قادر لإنسان غير قادر، ونشر للكراهية بين البشر، وخروج عن مقتضى منهج الله ، هذا القبح والإفساد هو كإفساد الصانع لصنعته ، أو كالسباك الذي ينفذ شبكة للصرف الصحى فى مبنى جديد فلا يتقن صنعته فيفسد المبنى كله . إن فى ذلك هدراً لإمكانات كان بالإمكان أن يستفيد منها المجتمع كله فى مجال ما من المجالات .

إن المهندس أو المقاول الذى لا يقيم البنيان على أسس سليمة فهو لا يصون حياة البشر الذين يسكنون فيه ، فهذا الإنسان هو مفسد فى الأرض ، ولكن فى المجتمع المؤمن رباط الإيمان يقتضى

من كل مؤمن أن يرعى الله فى عمله وفى ماله ، وأن يعرف أن هناك عهدا بينه وبين الله على اتباع منهجه فى عدالة وإتقان ، وأن يقيم ميزانا لعمله فلا يستغل ولا يسلك سلوكاً يقطع إحساس المسلم برعاية حق أخيه المؤمن وهو رباط أمر الله أن يوصل ، وأن يكون المؤمن فى عمله مخلصا لوجه الله فيتقن كل ما يفعل .

إن الإنسان عندما يرى صنعة متقنة من قبل إنسان آخر فالإنسان يقول إحساسا بالجمال ما شاء الله . . فينطق الإنسان لفظ الجلالة تعبيرا عن عمل أتقنه صاحبه ، والإنسان عندما يرى عملا غير متقن لصانع آخر فإنه يدعو على الصانع بدعاء قاس : يجازيه الله على حسب عمله ، والله لا يجازى مهملا إلا بعقاب .

والمهمل أو المفسد إنما يحرم الكون من ترديد لفظ الجلالة اعترافا بالشكر ، وبنعمة إتقان العمل ، والمهمل والمفسد ينثران القبح فى الكون الذى أتقن الله صُنعه وسخره للإنسان ، لكن الإنسان الذى يتقن عمله هو الذي يزيد في الكون صيحة الإعجاب والتقدير عندما ينطق كل إنسان بكلمة ما شاء الله . . إن اسم الله هو نغمة يجب على الكون كله سماعها فما بالنا بجزاء الإنسان المؤمن المؤدى لعمله بإتقان ؟ إنه جزاء البركة في الرزق ، والبركة فى الحركة ، وراحة الضمير والرضى ، والتواصل الإنسانى بأخوة الإيمان ، أما المفسد فى عمله فهو يحيا حياة الضنك لا يبارك الله

فى رزقه ، ويفتقد التواصل مع ضميره الإيمانى ، كما يفتقد الإحساس بأخوة الإيمان، وعندما نجد مهملا أو مفسدا أو حتى مغاليا فى الثمن فإننا نسمع صيحة افتقاد الصانع أو الموظف للذمة، وتنتشر فى المجتمع روح الأنانية، والفردية التى لا تعرف التآخى الإيمانى . وهكذا نجد أن مفسدا واحدا أو قلة من المفسدين أو المستغلين ينشرون الرذيلة فى المجتمع كله ، فكيف يكون الحال لو تعاون الناس على الإثم؟ إنهم إن فعلوا ذلك هدموا الخير كله. والتعاون على الإثم يبدأ من كل من يعين على أمر يخالف أمر الله فى افعل ولا تفعل .

والذى يأمر بتطبيق أمر الله فى افعل وينتهى بأمر الله لا تفعل هو من المتعاونين على البر والتقوى ، ومن يعمل ضد ذلك فهو من المتعاونين على الإثم والعدوان . لماذا ؟ لأنه ينقل الأفعال من دائرة افعل إلى دائرة لا تفعل ، وينقل النواهى من دائرة لا تفعل إلى دائرة افعل .

مثال ذلك من يؤلف أغنية خليعة مثيرة ومهيجة للغرائز فهذه تكون أول لبنة فى الإثم ، ثم يلحنها ملحن بإيقاع يساعد على ذلك فهذه اللبنة الثانية فى التعاون على الإثم ، ثم يغنيها ثالث بإيحاءات مثيرة للغرائز فهذه درجة ثالثة من التعاون على الإثم ، والذى يصفق طربا لهذا هو متعاون على ذلك أيضاً، ولهذا يقول

الحق سبحانه : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة : ٢] .

هذا القول هو أساس عمارة الكون ، وكما أنه أساس منع الفساد فى الكون .

وكذلك الذى يرتشى ، والذى يسهل عملية الرشوة . والذى يحمل الخمر للناس ، والذى يشربها، والذى يدلس، كل هؤلاء متعاونون على الإثم والعدوان، حتى إن البواب الذى يجلس أمام مدخل العمارة ويعلم أن بها بيتًا يدار فى أعمال مشبوهة كلعب القمار أو الدعارة أو ما شابه ذلك من المفاسد ويأخذ الثمن على ذلك فهو من المتعاونين على الإثم .

❑❑❑

الخيانة

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٧] .

يأمر الله سبحانه وتعالى بعدم المجادلة عن الذين يختانون أنفسهم ، والجدل من الفتل ، فالإنسان حين يفتل شيئا كأن يحضر بعضا من الشعر والصوف أو الليف ويجدله ليصنع منه حبلا فإنه يفتل هذا الغزل ليقويه ويجعله يتحمل الشد والجذب، ولذلك يقال عن مثل هذه العملية : إننا نجدل الحبل لنعطيه قوة. فكذلك شأن الخصمين كل واحد يريد أن يقوى حجته ضد الآخر فيحاول جاهدا أن يقويها بما يشاء من أساليب العقل أو الفصاحة .

والقرآن حين يعدل عن « يخونون أنفسهم » إلى ﴿ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ فلابد أن لهذا معنى كبيرًا ، إن الخيانة هى أخذ ما ليس بمستحق ، أى : بغير حق ، وقد تسول للإنسان نفسه أن يخون غيره لكن هل من المقبول أن يخون الإنسان نفسه ؟! .

إن الإنسان قد يخون من أجل مصلحة نفسه، لكن لا يخون نفسه .

وعلينا ألا نأخذ المسألة بعاجل أثر الخيانة ؛ ذلك لأن الإنسان حين يريد أن يعطي لنفسه شهوة عليها عقوبة فهذه خيانة للنفس، لأن الإنسان في مثل هذه الحالة أغفل العقوبة عن الشهوة ؛ إن الشهوة عابرة لكن العقوبة باقية وهذه خيانة للنفس .

❑ ❑ ❑

الخائن إنسان يرفض ستر الله

الإنسان الذى يخون الناس إنما يخون نفسه فإذا ما خان الإنسان نفسه فهى عملية ليست سهلة وتتطلب افتعالا ، ومن هنا جاء قول الحق سبحانه : ﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ ، لأن فى ذلك عملية افتعال للخيانة ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء : ١٠٧] .

ثم قال الحق بعد ذلك : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾[النساء : ١٠٥] .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿لِّلْخَائِنِينَ﴾ ولم يقل خوانين لماذا ؟ .

إن الخائن تصدر منه الخيانة مرة واحدة ، أما الخوّان فتصدر منه الخيانة مرات متعددة . أو يكون المعنى : هو أن الخائن تصدر منه الخيانة فى أمر بسيط ، أما الخوان فتصدر منه الخيانة فى أمر كبير .

إذن .. فمرة تأتى المبالغة فى تكرار الفعل، ومرة تأتى فى تضخيم الفعل أى عندما نقول : «فلان أكول» أو «فلان أكّال» هذه مبالغة فى «أكل» و «أكول» وهى مبالغة تكرار الفعل فالإنسان العادى يأكل ثلاث مرات والأكول يأكل عشر مرات مثلاً . وقد يكون من الآكلين لوجبة واحدة ولكنه يأكل أضعاف ما يأكل

الإنسان العادى إذن .. فالمبالغة هنا تكون فى تضخيم نفس الحدث أو فى تكرار الحدث .

إن من لطف الله أنه لم يقل « خائن » ، لأن الخائن هو من خان لمرة ، وقد تكون عابرة وانتهى الأمر . ولم يخرجه الله سبحانه عن دائرة الستر والحب إلا إذا أخذ الخيانة طبعا ومادة وحرفة وأصبح خوانا ، ولذا قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ .

وقد جاءت للخليفة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه امرأة أُخِذَ ولدها بسرقة وأراد عمر أن يقيم على هذا الولد الحد ، وجاءت الام تبكى وقالت يا أمير المؤمنين : والله ما فعل هذا إلا هذه المرة.. قال عمر : كذبت والله ما كان الله ليأخذ عبدا من أول مرة . ولذلك يقولون : إذا عرفت فى رجل سيئة انكشفت وصارت واضحة فاعلم أن لها أخوات سابقات لها ولا يمكن أن يُفضح العبد من أول سيئة، لأن الله سبحانه يحب أن يستر عبده، لذلك يستر العبد مرة وثانية ثم إذا استمر العبد فى السيئة وأصر عليها، فضحه الله وكشف ستره .

❑ ❑ ❑

الكيد

الكيد هو محاولة الإنسان إفساد الحال لآخر ، أو لآخرين .

وهناك من يحاول إفساد الحال بدون حيلة ، فعندما يضبطه الإنسان يقول : لا ، أنا لم أفعل أى شىء ، هذا هو الكيد .

ولا يُقبل على الكيد إلا الضعيف؛ لأن القوى يواجه ولا يكيد، ومثال ذلك : الضعيف هو من يدس السم للقوى فهذا احتيال إفساد الحال ، لكن القوى لا يفعل مثل ذلك بل يواجه ، وحتى الذى يقتل نقول له : إنك قليل الحيلة ، قليل الذكاء ؛ لأنك أثبت بتقدمك على قتله أنك لا تطيق حياته ، وكانت الرجولة تقتضى منك أن تواجه خصمك بالمنطق .

والحق سبحانه وتعالى يقول عن كيد الشيطان : ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] فكيد الشيطان ضعيف؛ لأنه لا يملك قوة يقهر بها، ولا يملك حجة يقهر بها قلب الإنسان ليقنعه، والكيد فيه احتيال ولا يحتال إلا الضعيف، وكلما كان الكائن ضعيفا للغاية كان كيده كبيرا ولذلك يقولون : المرأة أكثر لؤما من الرجل ، ويستخدمون فى التدليل على ذلك قول الحق سبحانه ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] . ونقول لهؤلاء مادام كيد النساء

عظيما فلابد أن ضعف النساء أعظم ، ولذلك أراد الشاعر العربى أنْ يبرز هذا المعنى إبرازا واضحا حتى لا تتعجب فيقول :

وضعيفة فإذا ما أصابت فرصة قتلت كذلك قدرة الضعفاء

فالضعيف عندما يمسك بالخصم، أو تمكنه الظروف منه فإنه لا يتركه يفلت منه .

إن الضعيف يخاف من انتقام الخصم ، لكن القوى يمسك بالخصم وبعد ذلك يتركه ويقول لنفسه : سأمسك به لأعاقبه إن فعل شيئا آخر . . وهكذا نعرف أنه كلما كان الكيد عظيما فإن الضعف يكون أعظم .



المن بالصدقة

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

[البقرة:٢٦٤]

الذى يتصدق ويتبع صدقته بالمن والأذى إنما يبطل صدقته فخسارته تكون خسارتين :

الخسارة الأولى : أنه أنقص ماله بالفعل، لأن الله لن يعوض عليه، لأنه أتبع الصدقة بما يبطلها وهو المن والأذى .

الخسارة الثانية : هى الحرمان من ثواب الله من عطاء هذه الصدقة .

الذى ينفق ماله ليقول الناس عنه أنه منفق ، أو أنه محسن فعليه أن يعرف أن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا فى هذا المجال أن الذى يدفع الأجر هو من عملت له العمل ، فالإنسان على محدودية قدرته يعطى الأجر على من عمل له عملا ، والذى يعمل من أجل أن يقول الناس إنه عمل فيأخذ أجره من القدرة

المحدودة للبشر ، ولذلك قال لنا رسول الله ﷺ عن الذى يفعل الحسنة أو الصدقة ليقال عنه إنه فعل « لقد فعلت ليقال وقد قيل » هذا الإنسان يأتي يوم القيامة فيجد أن لا أجر له(١) .

وإياك أيها الإنسان أن تقول : أنا أنفقت ولم يوسع الله رزقى، لأن الله قد يبتليك ويمتحنك فلا تفعل صدقة من أجل توسيع الرزق، لأن عطاء الله عند المؤمن ليس فى الدنيا فقط، ولكن الله قد يريد ألا يعطيك فى الفانية ويبقى لك العطاء فى الآخرة، وعندما تتأمل قول الحق سبحانه وتعالى فى حق الذى ينفق ثم

---

(١) أخرج مسلم [١٩٠٥/١٥٢] عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه ، رجل استشهد ، فأُتىَ به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها قال : قاتلت فيك حتى استشهدت قال : كذبت ولكنك قاتلت ليقال جرىء فقد قيل، ثم أُمِرَ به فسحب على وجهه حتى أُلقىَ فى النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارىء ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فسُحب على وجهه حتى ألقىَ فى النار ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتىَ به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال : ما تركت من سبيل تُحب أن يُنفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال كذبت : ولكنك فعلت ليقال : هو جوَاد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم أُلقىَ فى النار .

يتبع ما أنفق المن والأذى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ [البقرة:٢٦٤] الصفوان هو الحجر الأملس الذى تسميه بالعامية «الزلط» ويقال للأصلع صفوان أى رأسه أملس كالمروة ، ومعنى كلمة أملس أى : لا مسام له، أو: لا مسام يمكن أن تدركه بالعين المجردة إنما يدرك الإنسان هذه المسام بوضع الحجر تحت المجهر، وهذا الشيء عندما يكون ناعما يأتى عليه تراب وعندما يأتى المطر وينزل على التراب فلا يبقى من التراب شيئا على هذا الحجر الأملس ، ولو كان بالحجر بعض من الخشونة لبقى شيء من التراب بين نتوءات الحجر .

إذن . . فالذى ينفق ماله رئاء الناس هو كالصفوان يتراكم عليه التراب ثم عندما ينزل المطر على التراب فيزيله . وقوله : ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أى : فقدوا القدرة على امتلاك أى شيء؛ لأن الله جعل ما عملوا من عمل هباء منثورا .

❑❑❑

الكبر

لايوجد كبرياء إلا لله وحده ، أما الإنسان فهو من الأغيار ، فالقوى يصيبه الضعف ، والغنى يصيبه الفقر ، وإن كان عالما فقد يفقد علمه لسبب ما ، لذا فكل من أراد الاستعلاء والتكبر على غيره فليحاول أن يبحث عن شيءٍ ذاتيٍّ فى نفسه يستحق أن يتكبر به !

ومعنى ذلك أن يبحث عن شيء لا يسلب منه ، ولن يجد أحد ذلك الشيء؛ لأن الوجود الإنسانى كله يطرأ عليه الأغيار ، من غنى وفقر وضعف وقوة وصحة ثم ينتهى الكل بالموت .

لذلك فالمؤمن الصادق مع نفسه يعرف أن الكبرياء لله الواحد القهار وحده لا ينازعه فيه أحد[1] .

إذن .. فالمؤمن عليه ألا يحبط عمله بالاستعلاء على الخلق بما رزقه الله من مال ، أو موهبة فى عمل ينبغ فيه ، لأنه يعلم أن هذا كله من الله تعالى ، وأن الله مستخلفه وناظر ما يفعل فيه، فليرى كل منا ربه ما يحب ويرضى .

❑❑❑

---

(١) روى أبو داود [٤٠٩٠] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «قال الله عز وجل الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحداً منهما قذفته فى النار» .

الاختيال والتكبر

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ [سورة النساء : ٣٦] .

ما هو الاختيال ؟ وما هو الفخر ؟ .

مادة الاختيال: كلها تدور على زهو الحركة لذلك نسمى الحصان من فصيلة الخيل ، لأنها تتخايل فى مشيتها ، وعندما يركبها الفرسان تتبختر بهم، ولذلك كلمة الخيلاء من هذه .

إذن .. فالاختيال حركة مرئية، أما الفخر فهو حركة مسموعة ، فالحق سبحانه ينهى المؤمن أن يجعل صورته أمام الناس صورة المختال الذى يسير بعنجهية ، ويعتبر نفسه مصدر النعمة فينطبق عليه قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (١٠)﴾ [الحج]

أما الفخر : فهو أن يتشدق الإنسان بكلام غير صحيح أو مبالغ فيه فيحكى عما فعله ويمجده ويُعلى من شأنه وكأنه مصدر كل عطاء البشر .

❑❑❑

البخل

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ٣٧]

البخل هو المشقة فى العطاء ، فعندما يُطلب من شخص ما أن يُعطى شيئا فإنه يجد فى العطاء مشقة . لذا فالمؤمن موصوف ببسط الكف ، وأنه يسعد للعطاء ، أما البخيل فقد يذهب به بخله أن يضن بالشىء الذى لا يضره بذله ، ولا ينتفع بمنعه .

إن البخيل لا يرغب فى العطاء حتى ولو فى ذات نفسه ، واقرأ قول الشاعر حين يصور البخل والشح فإنه وصف البخيل أنه يبخل على نفسه ، وإذا كان الإنسان يبخل على نفسه فكيف يجود على غيره ؟

وكان الشاعر يذم شخصا اسمه عيسى وهو بخيل حتى على نفسه فيما لا يضره بذله ولا ينفع منعه ، فيقول :

يقتر عيسى على نفسه   وليس بباق ولا خالد

فلو يستطيع لتقتيره   لتنفس من منخر واحد

إنه بخيل إلى الدرجة التى يضن بها على نفسه فلا يتنفس بفتحتى أنفه ، ولكنه يحاول أن يتنفس بفتحة أنف واحدة لو استطاع .

وها هو ذا شاعر آخر يصور البخيل صورة تمنع عن البخيل الأريحية والكرم فيقول :

لو أن بيتك يا ابن عم محمد إبر يضيق بها فضاء المنزل

وأتاك يوسف يستعيرك إبرة ليخيط قد قميصه لم تفعل

إنه بخيل حتى بإبرة واحدة لو طلبها نبى الله يوسف عليه السلام الذى قد تمزق قميصه من دبر أثناء مراودة امرأة العزيز له عن نفسه.

هذا هو البخيل فى خيال الشاعر ، ولو أن نبيا كيوسف الصديق جاء إلى هذا البخيل الذى يملك منزلا مليئا بالإبر فلن يعطيه البخيل إبرة واحدة يخيط بها قميصه.

قال الحق سبحانه: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٠]

الحق سبحانه وتعالى يصنع للبخيل بما بخل به طوقا حول عنقه، فلو أن البخيل قد بذل قليلا لكان الطوق خفيفا حول رقبته يوم القيامة، لكن البخيل كلما منع نفسه من العطاء ازداد الطوق ثقلا.

ولقد قال الحق سبحانه وتعالى أيضا عن الذين يكنزون الذهب والفضة : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ [التوبة] .

وذلك يعني أن كل ما كنزوه من الذهب والفضة يحمى عليها في النار يوم القيامة لتكوى به الجباه والجنوب جمع جنب .

إذن . . فالإنسان العاقل هو من يخفف عن نفسه الكى بما يكنز .

والبخلاء عن عطاء الناس من مال الله لا يكتفون بما بخلوا به وهى خسيسة خُلقية فى نفوسهم يحبون أن تتعدى إلى سواهم كأنهم عشقوا البخل ويؤلمهم أن يروا إنسانا جوادا فيقول البخيل للمنفق فى سبيل الله لا تنفق . . لماذا ؟ لأن البخيل يؤلمه أن يرى الكرم ، ويحب أن يكون الناس كلهم بخلاء وذلك حتى لا يكون هناك من هو أفضل منه ، فالبخيل يعرف أن الكرم أفضل من البخل، والدليل أنه يطلب من الناس جميعا أن يكونوا بخلاء وهؤلاء هم الذين قال فيهم الحق سبحانه وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ٣٧]

إذن . . فالبخيل هو من ضن بما آتاه الله من فضله على من لم يؤت من فضل الله .

والبخل ليس في المال فقط ، إنما هو فى كل موهبة من المواهب التى أعطاها الله لأحد من خلقه وتنقص عند الغير ، فمن ضنّ بها فهو داخل فى البخل ، فالذى يبخل بقدرته على معونة العاجز عن القدرة فهو بخيل، والذى يبخل بما عنده من علم على من لا يعلم فهو بخيل ، والذى يبخل حتى على السفيه بالحلم فهو بخيل، فإذا كان الإنسان يملك طاقة من الحلم فلماذا لا يبذلها على السفيه ؟ .

إذن. . فمن معاني البخل هو أن يمنع الإنسان شيئا قد وهبه الله له عن مخلوق محتاج، فمثلاً ذلك البارع فى صنعة ما يضن بأسرارها على تلاميذه ، هذا لون من البخل كما يقول الحق سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾[النساء:٣٧] .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[النساء:٣٧] .

إن الكتم هو : منع شىء يريد أن يخرج بطبيعته ، فيحاول الكاتم كتمه ، فعندما يجرح إنسان فهو يكتم الدم ، لأنه إن لم يكتم الدم فإن الإنسان ينزف حتى يصفى دمه . وكأن المال والعلم وكل موهبة خلقها الله يريدها أن تظهر وتنتشر بين الناس لذا فإن

الفطرة الطبيعية فى كل رزق مادى أو رزق معنوى هو أن يستطرق - يوزع- بين البشر فكل شيء مخلوق لخدمة الإنسان .

فعندما يأتى إنسان ليكتم شيئا مخلوقا لخدمة الإنسان ، ويحجبه فقد منع الشيء عن أداء رسالته .

ولما كان كل شيء خلقه الله من أجل خدمة الإنسان فيجب ألا يعوقه أحد عن هذه الخدمة ، فالرزق ماديًا كان أم معنويا يغضب ويحزن ، ولابد أن يتسع ظن العبد المؤمن أن الجماد أيضاً يغضب ويحزن ، واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان:٢٩] .

إذن . . فبلاغ الحق فى قوله : ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء:٣٧] يبين لنا أن كل شيء مخلوق هو ملك لله تعالى خالقه وموجده ، فليس هناك شيء ذاتى فى الإنسان ولننظر إلى الكون حولنا وسنجده كله أغيارا فنحن فى حياتنا نرى القادر قد صار عاجزا ، وترى الغنى قد صار فقيرا ، والأيام دول .

من أجل ذلك حتى لا تستقر الأشياء أمام الإنسان ، وما من واحد إلا ويمر أمام عينيه ، وفى تاريخه ، وفى سمعه إلا أنه كان ثم صار غير ما كان ، ومادام الأمر كذلك فلم لا نعتبر ؟

إن البخيل عندما يكتنز ما آتاه الله من مال فهو يحرم نفسه منه، ويصير المال إلى أولاده أو ورثته وقد ينفقونه في غير ما كان يحب، ولا أحد بقادر على أن يخدع خالقه أبدا .

إن البخيل ييسر السبيل لغيره فقد حرم نفسه وادخر .. فلمن ادخر ؟!، إنه ادخر لبشر آخرين ، ومادام الادخار لأناس آخرين فهذا يعني أن رزق البخيل ضيق والذين سيأخذونه رزقهم واسع ، والبخيل حين يمنع المال عن الغير فهو قد يسر سبيلا لمن يعطي مستقبلا أي يدبر المال للمنفق في أن ينفقه .. إنه ييسر السبيل للكريم .



فعل السوء

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[الأنعام:٥٤]

السوء : هو الأمر المنهى عنه من الله، وهناك من يعمل السوء بجهالة .

وشائع بين الناس أن الجهالة تعنى عدم العلم ، وهذا فهم خاطىء للجهالة. إن الذى لا يعلم هو المرء الخالى الذهن ، ولكن الجهالة هى أن يعلم الإنسان حكما ضد الواقع ، مثل أن يكون مؤمنا بعقيدة تخالف الواقع .

ومعالجة الجهالة تقتضى أن ينزع منه هذه العقيدة التى ضد الواقع ثم نقنعه بالعقيدة المطابقة للواقع .

إن الذى يسبب المتاعب للناس هم الجهلة ، لأن الجاهل يعتقد فى قضية ويؤمن بها وهى تخالف الواقع ، إن الجهالة هى السفه والطيش؛ والطيش يكون بعدم تدبر نتائج الفعل، والسفه هو أن الإنسان لا يقدر قيمة ما يفوته من ثواب، وما يلحقه من عقاب ، وقد يكون الإنسان مؤمنا ولكنه يرتكب السوء ؛ لأنه لم يستحضر الثواب والعقاب ، وبذلك يرتكب من السوء ما يحقق له شهوة

عاجلة دون التمعن في نتائج ذلك مستقبلا ولو أن ذلك الإنسان قد استحضر الثواب والعقاب لما فعل ذلك السوء .

ومن معاني عمل السوء بجهالة هو أنه ارتكاب الأمر السيىء دون أن يبيت له الإنسان أو يخطط له .

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٧] .

الله سبحانه وتعالى يقبل توبة مرتكبي الذنب إذا ما ارتكبوه في حالة من الحماقة والطيش ثم يتوبون إلى الله تعالى، هؤلاء يقبل الحق سبحانه وتعالى توبتهم ، لكن الذين لا يندمون على فعل السوء هؤلاء يقول عنهم الحق :

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٨] .



رقم الإيداع
٢٠٠٠/٨١٢٥
الترقيم الدولى
977 - 08 - 0915 - 2

الفهرس

الفضيلة

الرذيلة

❑❑❑